المجلس الأعلى للثقافة

نتاشا.. العجوز

وقصص أخرى

المشروع القومي للترجمة

68

تأليف : فالنتين راسبوتين

ترجمة وتقديم : د. أشرف الصباغ

المشروع القومى للترجمة

نتاشـــا ... العجـــوز

وقـصـص أخـرى

فـالنتيـن راسبوتيـن

ترجمة وتقديم

د. أشرف الصباغ

المجلس الأعلى للثقافة

١٩٩٨

عالم فالنتين راسبوتين

«أنا واثق من أن الطفولة تصنع من الانسان كاتبا ، وكذلك القدرة فى سن مبكرة على رؤية وملاحظة كل ما يعطيه الحق فى الإمساك بالقلم بعد ذلك . إن التعليم والكتب والخبرة الحياتية تربى وتصقل هذه الموهبة فى المستقبل ، ولكنها يجب أن تولد فى الطفولة» . كتب ذلك فالنتين راسبوتين عام ١٩٧٤م على صفحات جريدة «الشباب السوفيتى» بأقليم ارقوتسك . وهو هنا لايقصد إطلاقا الانطباعات الطفولية فقط ، وإنما أيضا تلك الثقافة والخبرة والمخزون الحياتى التى بدأ الانسان فى تلقيها وفرزها وهضمها منذ وعيه على الحياة . هذه الجملة تحديدا يمكن أن نلمحها فى قصته القصيرة «ماما ذهبت إلى مكان ما» التى كتبها عام ١٩٦٥م . فالطفل الصغير الذى استيقظ من نومه ولم يجد أمه - وأمه بالذات - بجواره ، فى البيت ، يبدأ فى مراقبة العالم ، ورصده واكتشافه . ولكنه لايتوقف عند ذلك ، بل يمعن فى تعميق الرؤية حين ينفصل عن هذا العالم ، يكسر الحواجز والأطر - بالمفهوم الدرامى المسرحى - ويأخذ فى إلقاء نظرة كونية شاملة على الموقف من بعيد ، من جهة أخرى ، ثم يعود بعد لعبته الطفولية البسيطة فيدخل ثانية إلى حياته - عالمه الطفولى البسيط بعد أن أدرك على مستوى الخبرة بعض الأشياء الهامة مثل الخوف والوحدة ، وهى الأشياء التى لايدركها الصغار فقط ، وإنما الكبار أيضا . ولكن هناك فرقا كبيرا فى هذا الإدراك بين الكبار والصغار ، حيث يأتى هنا ليس عن طريق السن

والقدرة على الحركة ، والحرية فى اختيار التجربة ، وإنما عن طريق التماس المباشر مع عملية الادراك نفسها والتقاطع معها .

البدايات

فالنتين جريجوريفيتش راسبوتين ولد في ١٥ مارس ١٩٣٧م فى قرية «أوستا – أودا» على نهر أنجارا بمقاطعة ارقوتسك بسيبيريا . بدأ حياته محررا صحفيا ، وفى مطلع الستينات صنفه البعض ، بعد نشر قصصه الأولى ، بأنه فتحا جديدا فى الأدب الروسى . ذلك الأدب الكونى الصعب الذى مايزال يحافظ على ملامحه الخاصة وخطوطه العريضة وقاعدة إنطلاقه – بالرغم من تعدد المدارس والاتجاهات وتشابكها أحيانا، وانفصالها فى أحيان أخرى – فى علاقته بمجمل الأدب الروسى منذ القرن التاسع عشر ، الأمر الذى يجعل عملية الفرز والتصنيف غاية فى الصعوبة ، بل ويجعل عملية نسب العمل الأدبى إلى مدرسة – نزعة – بعينها ضرباً من العبث ، وربما الاحتيال . فقط يمكن أن ننسبه إلى اتجاه ما يستند ، مهما كان اسمه ، إلى التربية الروسية مميزة الملامح .

أنهى فالنتين راسبوتين دراسته بجامعة ارقوتسك عام ١٩٥٩م فى كلية الآداب والتاريخ . وفى الفترة من عام ١٩٥٨م حتى ١٩٦٦م عمل بالصحافة في كل من أرقوتسك وكراسنويارسك : فى عام ١٩٥٨م عمل مراسلاً لجريدة «الشباب السوفيتى» ، وفى عام ١٩٥٩م بدأ العمل بالتلفزيون ، ثم مراسلا لصحف أخرى . وفى عام ١٩٦١م صدرت له

أولى مجموعاته القصصية بعنوان «نسيتُ أن أسأل ليوشكا» ، وصدرت مجموعته الثانية «إنسان من العالم الآخر» عام ١٩٦٥م ، وفى عام ١٩٦٦م صدرت له ثلاثة كتب دفعة واحدة تضم مقالاته عن سيبيريا وحياة الجيولوجيين وعمال البناء . فى نهاية الستينات بدأت الملامح العامة لكتابات راسبوتين تظهر بوضوح ، وأصبح أحد أهم الكتاب الذين يكتبون عن القرية الروسية . فى ذلك الوقت – فى نهاية الستينات – ذاعت شهرة فالنتين راسبوتين فى أنحاء الاتحاد السوفيتى بعد روايته الأولى «نقود لماريا» (١٩٦٧م) ، وبعد ذلك خرجت إلى النور روايته الثانية «المهلة الأخيرة» (١٩٧٠م) ، ثم رواية «عش وتذكر» (١٩٧٤م) . وفى عام ١٩٧٦ كتب روايته «وداعا مع ماتيورا» ، ذلك العمل الذى وضعه على درجة واحدة مع العديد من الأدباء الروس الذين كرسوا حياتهم وأعمالهم وعالمهم الإبداعى للقرية الروسية مهضومة الحقوق فى كل العصور والأزمان . بهذه الرواية تحديدا وضع راسبوتين اللمسات الأخيرة على طريق شهرته ليصبح أحد أهم الذين يواصلون التقاليد الأدبية للواقعية النقدية فى روسيا ، وبذلك نال جائزة الدولة عام ١٩٧٧ م .

جائزة الدولة للمرة الثانية

إن شهرة راسبوتين لم تتأت فقط من إبداعاته الأدبية ، ولكن إلى جانب كل ذلك فقد أكدتها مؤلفاته الأخرى ، مقالاته وكتبه التى وضعته

على طريق أجداده المشاكسين الذين كانوا يحشرون أنوفهم فى كل شئ ، وكانوا يغضبون على الدوام قياصرتهم ورؤساءهم . ففى عام ١٩٦٩م ظهر كتابه «مصيرى سيبيريا» ، ثم «ذكريات عن نهر» (١٩٧١م) ، وفى عام ١٩٧٢م ظهر كتاب «إلى أسفل وإلى أعلى مع التيار» . وربما يكون عنوان كتابه «مصيرى سيبيريا» هو الذى يمكنه أن يوضح واحدة من أهم الركائز التى يستند إليها الأدباء الروس فى إبداعاتهم وفى حياتهم الشخصية . إن راسبوتين فى هذا الكتاب يتناول سيبيريا من ناحية ايكولوجية ، وليس من سمعتها المنتشرة كمنفى . ومع ذلك فتسمية الكتاب بهذا الشكل تدفع إلى التداعى بصورة أو بأخرى . إن سيبيريا تشكل إحدى أهم المعضلات فى حياة روسيا منذ ما قبل بطرس الأول ويكاترينا الثانية ، وذلك من حيث موقعها وأهميتها وثرواتها التى لم يتم الكشف عنها حتى النهاية . وهى من ناحية أخرى تشكل فى وعى الانسان الروسى مظهرا من مظاهر النفى الذى يمتلك فى مخيلة الانسان العادى والكاتب – على حد سواء – أبعادا مأساوية يمكنها ببساطة أن تحيلنا إلى العديد من التداعيات الخاصة بمصائرالكتاب الروس . إننا نعرف مصائر مأساوية لكتاب كثيرين فى العالم ، ولكن عندما يدور الحديث عن مصير الكاتب الروسى نجده صفة عامة ، أو ركيزة أساسية تجعل هذا الكاتب موصوما بها حتى النهاية . وإذا كانت علاقة الكاتب بالسلطة تشكل معادلة صعبة ومعقدة منذ بداية الكون ، فهى فى روسيا ، وبالنسبة للكتاب الروس تشكل حجر الزاوية . هناك

الذى ارتبط أو تماس مع السلطة وتقاطع معها فى الطريق ، ثم انقلب عليها بصورة كانت ، ومازالت ، تحير القائمين على هذه السلطة . وهناك من لم يكن له علاقة مباشرة معها ، ولكنه مع ذلك كان يتحرش بها ، ليس من أجل الشهرة أو الحصول على مكاسب أو تفويضات ، ولكنه المصير المأسوى ، العبثى ، الذى تذكرنا به التراجيديات اليونانية القديمة . لم يفلت أحد من الكتاب الروس من هذا المصير بداية من بوشكين وحتى راسبوتين وغيره فى عصرنا هذا . ولكن فالنتين جريجوريفيتش يتميز فى وقتنا الراهن بمجمل هذه الصفات ، أو على نحو أدق بهذا المصير . فهو كاتب غزير الانتاج ، إنسان ذو طبيعة نشطة ، يمتلك طاقة داخلية جبارة متدفقة تدفعه دوما إلى الحركة والخوض فى كل ما يهم الانسان بوجه عام ، وعلى الأخص ما يهم روسيا والانسان الروسى ، وما يرتبط بتاريخهما وهمومهما وقضاياهما ، الأمر الذى دفعه منذ عدة سنوات إلى تأجيل العمل الأدبى والخوض فى السياسة ، بل واتخاذ مواقف حادة ضد السلطة الحالية فى روسيا . وهنا لايمكننا أن ننسى أو نتجاهل أنه كان أيضا ضد السلطة بدرجة ما فى المرحلة السوفيتية ، وهو على المستوى الفكرى - النظرى ، وربما الواقعى أيضا ، ضد المرحلة القيصرية . أما الجانب الآخر فى طبيعة فالنتين راسبوتين فيظهر فى الهدوء والدماثة اللذين كان يتميز بهما أنطون تشيخوف رغم السخرية المرة والحزينة التى لاتتعارض أبدا مع هاتين الصفتين بما تمتلكان من عمق واتساع ، حتى أنهم يشبهونه فى

روسيا بمسيح يعيش فى صحراء . وإذا كان الترحال والسفر والتحرك الدائب والمستمر من صفات الكاتب عموما سواء كان شاعرا أو روائيا أو فيلسوفا أو مفكرا ، فتلك الصفات على وجه الخصوص تمثل للكاتب الروسى الطريق الأول والأوسع فى الحياة من أجل عملية الاكتشاف والتتبع والرصد . فبداية من بوشكين وجريبويدوف وتورجينيف وجونتشاروف وديستويفسكى وشيدرين وجوجول وليرمنتوف حتى يسنن ومايكوفسكى وآخرين كان السفر والترحال وأحيانا الهجرة أو المنفى أو الإقامة خارج روسيا طريقا للاكتشاف ، وقد استطاع أنطون تشيخوف - على سبيل المثال - أن يضيف بعدا أكثر أهمية فى هذا الطريق عندما ركب «الكارتة» وذهب مجازفا بحياته إلى جزر سخالين ، ثم كتب كتابه الرائع الذى أغضب القيصر كثيرا . هنا يأتى دور فالنتين راسبوتين على هذا الطريق بالذات ، فنجده موجودا فى كل أنحاء روسيا فى وقت واحد تقريبا ، وخصوصا فى تلك المناطق التى تعانى من المشاكل بكل أنواعها، بداية من المصاعب الاقتصادية حتى كوارث الانهيارات والحرائق . وهو يفعل ذلك ليس فقط من قبيل الواجب والمبدأ أو التحيز للفقراء والمهمشين ، ولكنه يقوم بذلك وقبل كل شئ لأنه الطريق - المصير - الحقيقى للكاتب الروسى ، الذى سار عليه أعظم الكتاب الروس فى القرون الماضية ، ولايزال بعضهم يحافظ - ربما بدون قصد ، أو حتى بقصد - على هذا النمط ، وذلك تحديداً ما يجعل راسبوتين أحد أهم الأصوات العالية إذا ما دار الحديث عن روسيا ، والطبيعة الروسية ،

والإنسان الروسى ، ووحدة روسيا . إضافة إلى كل ذلك ، ففى جميع أعماله الإبداعية ، وحتى فى كتبه ، يوجد عالم روحى خاص حيث تتشكل نماذج أبطاله أساسا بكينونة محددة ، الأمر الذى يجعل فيها الحكم الأول والأخير لضمير الإنسان . وعموما فهذه الخصوصية بالذات موجودة بوضوح فى أعماله «المهلة الأخيرة» و«عش وتذكر» والتى تممها بروايته الانتقادية الحادة «الحريق» عام ١٩٨٥م ، ونال بها جائزة الدولة للمرة الثانية .

السلطة ومواقف راسبوتين السياسية

لدى فالنتين راسبوتين مجموعة من الآراء والمواقف السياسية التى تبدو فى ظاهرها متناقضة إذا ما نظرنا إليها نظرة عابرة . ولكنها فى مجملها تشكل جزءا هاما من العالم الادراكى للكاتب ، وتتكامل مع منظومته الفكرية المعقدة ، والتى كما قلنا فى السابق أنها الركيزة الأساسية ، والمصير الذى يلاحق الكاتب الروسى منذ القدم ، خاصة وأن راسبوتين لم يتماس أو يتقاطع بصورة عابرة مع السلطة، وإنما توغل فيها ، ومارس السياسة ، واتخذ مواقفا حادة للغاية . وعلى الرغم من كل ذلك فهو يؤكد دائما على أنه ليس شخصية سياسية «السياسة – أمر قذر ، الانسان المستقيم – الشريف – لايجد فيها ما يفعله . وهذا لايعنى أنه لا يوجد فيها أناس شرفاء ، ولكن كقاعدة فهم مقضى عليهم بذلك» . أما الذين يصنفونه بأنه معادى للمرحلة الشيوعية فى حياة

روسيا . فيتوقفون كثيرا أمام قوله «لقد أعادت روسيا هضم الشيوعية ، ومن ثم وظفتها لخدمة دولتها» .

في بداية سياسة البيريسترويكا قام الكسندر نيكولايفيتش ياكوفليف عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي بدعوة راسبوتين إلى مكتبه ، وكان كل منهما يدرك جيدا مدى العداء المتبادل ، ولكن المقابلة تمت بهدوء ؛ لأنها كانت بتوجيهات من ميخائيل جورباتشوف الذي كان في حاجة ماسة وقتها إلى تأييد ومساندة الجميع ، وخاصة الكتاب ، وراسبوتين على وجه الخصوص . استمر اللقاء ما يقرب من ساعة كاملة ظل خلالها راسبوتين معتصما بالصمت التام ، وكذلك فعل ياكوفليف . وفي النهاية قال المنظر الأول للحزب : «أعتقد أنكم لن تنتقدوننا كثيرا» . ويبدو أن العبارة تتضمن الكثير من التحذيرات ، إلا أن راسبوتين ظل صامتا . ومع ذلك لم ينقذه هذا الصمت من انتقاد وهجوم أنصاره وجمهوره . وفي نهاية عمر البيريسترويكا ردد راسبوتين في سخرية ومرارة : «إنني بكثير من الخجل أتذكر أحاديثي مع جورباتشوف ...» .

وفي عام ١٩٨٦م تم انتخاب راسبوتين سكرتيرا لمجلس إدارة اتحاد كتاب الاتحاد السوفيتي ، وسكرتيرا لمجلس إدارة اتحاد كتاب روسيا السوفيتية (مازال حتى وقتنا هذا سكرتيرا لمجلس إدارة اتحاد كتاب روسيا الاتحادية) . وفي عام ١٩٨٩م أصبح نائبا للشعب بترشيح من اتحاد كتاب الاتحاد السوفيتي ، وصار عضوا بلجنة المجلس الأعلى

للايكولوجيا وترشيد استخدام الموارد الطبيعية بالاتحاد السوفيتى
وبعد انتخاب ميخائيل جورباتشوف رئيسا للاتحاد السوفيتى فى المؤتم
الثالث لنواب الشعب ، قام بتوجيه الأوامر إلى راسبوتين بالانضمام إل
المجلس الرئاسى للاتحاد السوفيتى . وظل فالنتين جريجوريفيتش عضو
بهذا المجلس حتى تم حله فى نوفمبر عام ١٩٩٠م بعد إنشاء مجلس
الأمن القومى .

أما علاقته بالسلطة الجديدة فى روسيا ، فهى متنوعة ومتعدد
الأوجه أيضا . فى البداية قال راسبوتين عن بوريس يلتسين : «لق
استدعى هذا - أى يلتسين - إلى الحياة تلك القوى المدمرة التى ساعد
فى الوصول إلى السلطة ، وهى نفسها التى تعمل ضده الآن . ليساع
الله الرئيس فى التغلب عليها» . ولكنه يعود ليردد فى موقف آخر : «ا
نتعجب إذا ما صحونا غدا واكتشفنا أن رئيس روسيا قد أصبح
بحجة الجمع بين وظيفتين - رئيسا لشركة ما عابرة للقارات» .

وبالتالى ففى عام ١٩٩٢م ، بالاجتماع الدورى للمجلس القوم
الروسى ، تم انتخابه رئيسا إلى جانب كل من الكسندر ستيرليجو
وفالنتين فيودروف . وفى المؤتمر الأول لهذا المجلس انتخب رئيسا إل
جانب كل من ستيرليجوف وجينادى زيوجانوف . وفى أكتوبر ١٩٩٢
أصبح عضوا باللجنة التنظيمية لجبهة الانقاذ الوطنى . وهو حاليا يع
أحد قادة المعارضة الروحية فى روسيا . أما الخطوة الأخيرة التى ق
بها رئيس روسيا ، ولايخفى مغزاها على أحد ، رغم أن لا أحد يدر

مـاذا سـيتـرتب عليـهـا بعـد ، فـهى إرسـال تلغراف بتـاريخ ١٤ مـارس ١٩٩٧م لتهنئة راسبوتين بعيد ميلاده الستين جاء فيه : «أنتم أكبر كاتب روسى ، واسـمكم مكتوب بحق فـى تاريخ الأدب الروسى والعـالمى . وقـد أصبحت أعمالكم الأولى حدثا فى الحياة الثقافية والاجتماعية للدولة . إنكم بشـجـاعة ، وبصـوت ينذر بالخطر ، قد تحدثتم عن أصـعب قضـايا حياتنا . والقراء يجدون فى أبطال أعمالكم أفضل ملامح وصفات الطابع القومى الروسى – قوة الروح والكبرياء والضمير . وأنا أعرفكم كانسان حار محب لروسيا . وبصرف النظر عن اختلاف وجهات نظرنا ، إلا أننى أنظر باحترام بالغ إلى أعمالكم الابداعية ، وإليكم شخصيا ...»

هكذا يجد القارئ والمتابع لحياة الكاتب الروسى المعاصر فالنتين جريجوريفيتش راسبوتين مجموعة هامة من المحاور التى تتشكل منه شخصيته ومنظومته الفكرية . ومن الصعب تماما إصدار رأى قاطع ، أو حكم نهائى على الكاتب فى ظل صور عديدة من التناقضات التى تحيط به من ناحية ، ومن ناحية أخرى يشارك فيها شاء أم لم يشأ بصورة ربما تبدو له متسقة تماما مع قناعاته الشخصية ، بينما يرى الآخرون فى ذلك أمـور أخـرى تتـخـذ ذريعـة فى الهـجـوم على الكاتب أو نفى إبـداعاته .

أما إذا اقتربنا من فالنتين راسبوتين كروائى مبدع فسوف نكتشف جوانب أخرى ربما تكون مكملة للصورة . حيث إنه من الخطأ الشديد ، الذى يقترب مـن حـد التـضليل والتعمـية ، أن نقـوم بتجـزئ الكاتب

أو التعامل مع عناصر تكوينه بمعزل عن بعضها البعض . فمن ياترى يمكننا وضعه إلى جانب فالنتين راسبوتين ؟ فاسيلى بيلوف ؟ يورى كازاكوف ؟ فيكتور أستافيف؟ سولجينيتسين؟ بونداربيف؟ ماكانين؟ بيتوف؟ كلهم كتاب روس فى غاية الأهمية ، إلا أن راسبوتين يختلف عنهم جميعا فى أمور عديدة ، على المستوى الشخصى والإبداعى على حد سواء .

فلسفة الأسماء عند راسبوتين

يسود اعتقاد ، يبدو غريبا للوهلة الأولى ، بأنه لدى أى فنان كبير لابد وأن يوجد بالضرورة عمل قد قيل فيه أكثر ما يمكن ، أما الأعمال الأخرى لهذا الفنان فتعتبر مدخلا أساسيا ، أو فى أفضل الأحوال مقدمة لهذا العمل حتى وإن جاءت بعده . هناك أيضا فرضية أخرى ربما تبدو أكثر غرابة ، وتقضى بأنه لدى الفنان الحقيقى نقابل على الدوام تلك المسميات التى تحدد بالضبط - فى عدة كلمات - المغزى الأساسى ، والمعنى الكلى لعمله الابداعى . وبالنسبة لفالنتين راسبوتين يبدو كل ذلك طبيعيا ، وليس غريبا على مجمل إنتاجه الأدبى . ولو تساءلنا : فى أى عمل يمكن أن نرى راسبوتين قد قال أكثر ما يمكن ، فسوف تقفز الاجابة تلقائيا من بين طيات عالمه لتعلن عن روايته «عش وتذكر» . وإذا تساءلنا : أية تسمية من التسميات استطاعت أن تحدد المعنى الأساسى لإبداعاته ، فسوف يتعين علينا التكرار : «عش وتذكر»، كلمتان فقط تعبران عن مجمل العالم الادراكى للكاتب .

إن راسبوتين فى مسميات أعماله الإبداعية يبدو انتقائيا ودقيقا لأبعد الحدود . وفى كل تسمية يمكننا أن نلمس شيئا ما روحيا ، مقدسا، ثقافيا ، دينيا ، تراثيا ، والمدهش أن كل من هذه الأشياء يمكن أن نضع وراءه كلمة «روسى» . لنكتشف على الفور أن العالم الروحى ، المقدس ، الثقافى ، الدينى ، التراثى ، هو روسى فى الأصل عند فالنتين راسبوتين . وهذا يعنى أن العالم المُدرَك لدى الكاتب يقف على قاعدة الأدب الروسى الصلبة ، التى استطاعت أن تشكل تربة شديدة الخصوصية فى إطار الأدب العالمى . ورغم كل ذلك ، وبرغم ما تبدو عليه روايته «عش وتذكر» من مخالفتها النسبية للتفسير السابق ، إلا إنها – مع ذلك – ترن فى الأذن كتعويذة ، أو ربما كتحذير دينى مثل تحذيرات الانجيل ووصاياه «... وتذكر خالقك فى شبابك حتى لا تأتى الأيام الصعبة ، وحتى لا تأتى السنوات التى ستقول فيها : «ليست لى فيها لذة! » إنها تسمية تبدو فى نهاية الأمر كرنين الأجراس ، وقرع نواقيس الخطر .

ذاكرة الماضى والمستقبل

«عش وتذكر» والذاكرة عند راسبوتين ليست فقط فى ، أو عن ، الماضى . إنها جزء من الحاضر . والتذكر كعملية ، غير محدد ولا يسير فى خط مستقيم ومباشر . إنها عملية متفردة تخفى الكثير من التفاصيل والذرات الدقيقة غير المرئية ، تقلص أشياء تبدو وكأنها لم تحدث ،

وتضخم أشياء أخرى تبدو وكأنها قد حدثت لتوها ، أو ربما ستحدث الآن ، أو بعد قليل . ولكى نتجنب أهوال الذاكرة الإنتقائية ، فلابد وأن نعتصم بشيء ما دائم ومتطور وفعال ، بشئ روحى فى عمومه يبعدنا عن العصبية واستخلاف الآلهه فى الأرض ، ويقربنا من الانسان لنكتشف عظمته وعبقريته حتى فى أحلك الظروف . إنها الثقافة بمعناها الواسع والعميق . الثقافة ذلك المصدر الدائم لعملية التطور والانماء على المستويين المادى والروحى . الثقافة كذاكرة إنسانية جماعية للأجيال الماضية والحاضرة والقادمة . من هنا يتضح أننا بعد الموت لانفنى ، ولكن فقط نجد أن ذاكراتنا التى كانت من قبل داخلنا فى الـ«أنا» قد استدارت ، أى «عادت» إلى الخارج لتتقاطع مع الذاكرات الأخرى الخارجية . ولنكتشف أن الثقافة هى أحد وجوه الديمومة ، وخصوصا الديمومة البشرية ، وهى ذاكرة حية للأموات – فقط – عضويا ، وما نحن إلا كائنات تعيش فى عمق ذاكرة الأجيال الماضية . وكلما نسينا ثقافتنا ، نسيتنا هى الأخرى (ونسينا أجدادنا) على الرغم من استحالة ذلك بالنسبة لهم ولنا فى آن واحد . وهذا هو المعنى الفعلى للثقافة ، ولو على الأقل من وجهة نظر فالنتين راسبوتين فى أعماله الروائية على وجه الخصوص .

ليس مصادفة أن تأتى معظم – أن لم تكن كل – مؤلفات فالنتين راسبوتين بنهايات مفتوحة مثل بداياتها أيضا . فهو يبدأ وكأن هناك شيئاً ما قديما قد حدث ، أو مازال يحدث ، أو أن صداه لايزال يطن فى

الذاكرة . بعد ذلك ينتهى العمل على الورق ، ولكن دائما هناك شئ ما سوف يحدث . ففى رواية «عش وتذكر» لا أحد يدرى مصير أندريه جوسكوف . النهاية مفتوحة تماما ، بل ويمكن لأى كاتب آخر أن يكتب رواية كاملة عن مصير هذا الانسان . وفى «المهلة الأخيرة» نظل نفكر ونتألم : مَنْ مِنْ أولاد العجوز (أنّا) سيحضر دفنتها . إن راسبوتين يترك الأمر لكل منا على حدة ليواجه نفسه بذلك السؤال . وفى معظم مؤلفاته نجد ما يسمى بالصلاة الأخيرة ، أو صلاة الوداع . صلاة الوداع لـ«ناستينا» فى «عش وتذكر» ، وللعجوز فى «المهلة الأخيرة» ، وللعجوز أيضا فى قصته القصيرة «العجوز» ، وفى قصته «لا أستطيع» . إن صلاة الوداع تلك تشكل لدى راسبوتين صلاة مسيحية حقيقية ، وفى ذات الوقت تصيغ - تخلق - أعمق خلايا الذاكرة ، لأننا إذا تذكرنا الماضى والمفقود والضائع ، فلربما نستطيع أن نفكر فى المستقبل أو على الأقل فى الحاضر . إن الذاكرة ، وعملية التذكر مرتبطتان بالفعل ، بالحركة الدائبة والدؤبة من أجل فتح ثغرة فى الواقع الأصم المهيمن . وبمعنى أدق ، فالذاكرة لدى راسبوتين لا تقتصر على عملها الوظيفى - الفيزيولوجى ، وإنما تتجاوزه للبحث والتقصى والرصد ، بل وأحيانا للبحث فى نفسها ، أى البحث فى المنهج ، فى العدسة التى نرى بها الأشياء ، وليس فقط البحث فى الأشياء ذاتها . ومن هنا يشغل موضوع الحياة والموت عند راسبوتين أهمية كبيرة لدرجة أنه يكاد يصير موضوعا قائما بذاته . فلديه دائما شئ ما يخرج ، أو أحد ما يذهب ، يرحل عن

العالم والحياة . هناك الكثير الذى يذهب لكى يتذكره الانسان ، والكثير الذى يبقى – أيضا – لكى يفكر فيه الانسان .

الطبيعة الحية وديمومة الذاكرة

الطبيعة لدى راسبوتين تلعب دورا أساسيا فى تشكيل وصياغة الذاكرة . ليست الطبيعة الجميلة والهواء العليل والثلج الأبيض الجميل ، إنها الطبيعة الحية : الشواطئ ، المياه ، السماء ، الجليد على الأرض ، الرياح ... الخ . لأن جميع هذه الأشياء تمتلك فى داخلها طبيعة حية أخرى موازية لما تمتلكه فى أفكارنا نحن من حركة دائبة . فهو يمزج الماء بالأرض بالسماء ، يعيد تشكيل العالم الطبيعى من أجل اكتشاف وإعادة تشكيل الانسان . إنه يكشف حالة الانسان من خلال كشف حالة الطبيعة الحية ذاتها ، ومن ثم يُخرج روح الانسان من جسده ويوحدها مع الطبيعة ، يبثها فيها لتتكشف بعد ذلك كل أبعادها وجوانبها بصرف النظر عن السلبى والايجابى . فالطبيعة لديه أعلى من الحلم ، وهو يتخذ الحلم طريقا إلى الاكتشاف والتأمل والتفكير . يتعامل مع الحالة المعقدة الواقعة بين اليقظة وغياب الوعى المادى المباشر الذى يتعامل مع الأشياء بصورة مباشرة ، والذى يتعامل مع نفس تلك الأشياء بأشكالها وصورها الموجودة عليها فى اللحظة الآتية . إنه يقف فى تلك المساحة ليرصد الأبعاد الخفية للعالم وللطبيعة ، وللروح الانسانية التى لايمكن أن تتكشف فى حالة اليقظة ، أو تظهر بوضوح .

لقد تمكن راسبوتين من التعامل مع هذه الحالة غير الممسوكة ، واستطاع أن يحرك أبطاله تارة طائرين وتارة سابحين ، وتارة أخرى سائرين مغلقى العيون ولكن بوعى شديد ، وبذاكرة متيقظة . إنه يتعامل مع الطبيعة ليس كخلفية غنية بالجمال فقط ، وإنما كمنظومة متكاملة ومعقدة فى هارمونيتها وتجانسها ، الأمر الذى يجعلها تكتسب بعدا جديدا آخر أعمق وأشمل ، فهى لم تلد الانسان فقط ، وإنما تتحكم فيه أيضا على الرغم من أنها تمنحه فى ذات الوقت إمكانيات هائلة للفعل . وتلك معادلة غاية فى الصعوبة والتعقيد ، وتزيد من صعوبة أبطال راسبوتين في علاقتهم بالطبيعة نفسها .

عجائز راسبوتين والذاكرة الحية

إن راسبوتين أحد أكثر الكتاب الروس الذين تعاملوا مع نماذج الشخصيات العجوزة ، وبالذات السيدات . المرأة بشكل عام عنده تشكل حجر الزاوية ، تمثل حالة الفعل ، استمراريته ، ديمومته ، قوته النشطة المحفزة . ولكن المرأة العجوز هى الحكمة / الذاكرة ببعديها الروحى والفزيولوجى . فلديه عدد هائل من العجوزات اللائى يحملن ، ويحفظن فى آن واحد العادات والتقاليد الشعبية ، والصور الشخصية ، والطبائع الروحية والنفسية . وهن فى نفس الوقت يرتبطن بموضوع الحياة / الموت / الذاكرة الحية ، حيث نكتشف أن الموت لدى راسبوتين ليس موضوع رحيل وفناء بقدر ماهو موضوع تفكير وتأمل فيما تبقى ، وعما

تبقى ، وذلك من أجل إعادة تشكيله وتفعيله فى مقارنة هائلة ومتشبعة مع ما رحل . والمقارنة هنا – وتحديدا لدى عجائز راسبوتين ، ولدى راسبوتين ذاته – ليست من أجل الخروج بنتائج سريعة ، وإنما من أجل فتح آفاق جديدة للآتى الذى لايعرفه أحد ، ولكن يمكن تخمينه / تحديده فى احتمالات كثيرة ، وبأوجه متعددة . وتلك هى خبرة عجائز فالنتين راسبوتين . العجائز / السيدات البسيطات الممتزجات بكل شئ حتى بالأرض والسماء والمياه والثلوج ، بالطبيعة الحية ، بالذاكرة الحية ، بالأحفاد الذين رحلوا ، وبالأبناء الذين سيأتون ، وربما العكس . لأن عجائز راسبوتين يتميزن بذاكرة أرضية حية ترمى بظلالها على الفلسفة والروح والذاكرة . فإحدى عجائزه تنادى الأحفاد بأسماء الأموات ، تخلط الأزمنة لتصنع زمنا جديدا خاص يتواصل فيه كل شئ ويتشابك على نحو يجعله متغلغلا وراسخا فى الذاكرة . وتفعل ذلك ليس بحساب الأيام أو السنوات ، وإنما تفعله بالخلط بين الأحياء والأموات ، بين زمن الحياة وزمن الموت . ولكن حياة وموت من؟ ومن هم هؤلاء الأموات والأحياء بالنسبة لها ؟ أما العجوز الأخرى فهى على فراش الموت ، لم تعد ساحرة كما كانت فى الماضى ، بل أدارت ظهرها منذ زمن بعيد للسحر . الجميع يعشقونها لأنها تعشق العمل والصيد وتربية المواشى . ولكن ما الذى يعذبها ويضنيها قبل الموت ؟ إنها لاتخشى الموت إطلاقا ؛ لأنها نفذت واجبها الانسانى ، ولأن ذريتها استمرت وستستمر . ولكن هذا التواصل البيولوجى غير كاف بالنسبة لها . ورغم أنها ترى أن السحر لم يعد

وظيفة ، إلا أنها فى ذات الوقت مؤمنة تماما بأنه جزء من الثقافة ، من التـراث ، من الموروث الشـعـبى ، إذ إنهـا كـانـت تعـالج الناس أيضـا بالأعشاب ، كانت تمارس التطبيب بوسائل شعبية من الطبيعة الحية . ولذلك ينتابها الخوف ، يتلبسها عذاب شديد قبل الموت . ففى رأيها أن الانسـان الأخـير فى ذريتـه ، الانسـان الذى تنتـهى به الذرية ، إنسـان بائس وشقى . ولكن الانسان الذى اكتسب من شعبه ومن ناسه ثروتهما التاريخية ثم حملها معه إلى القبر دون أن ينقلها إلى الآخرين هو ...؟ إنها تعجز عن وصفه .

العلم والفلسفة ... والروح

إذا كانت عجائز راسبوتين يجتهدن بذاكرة أرضية فى صنع زمن خاص جديد من خلط الأزمنة الماضية والحاضرة والقادمة تتشابك فيه كل الأشياء ، فإن راسبوتين نفسه يقوم بتأسيس أزمنة جديدة يفتح فيها نافذة للمراقبة والرصد وولادة الأسئلة الجديدة أيضا . إنه يتعامل مع العلم والفلسفة بمنطق خاص ، ويؤمن بأن الظواهر الغريبة موجودة رغم غرابتها لأن العلم – ببساطة – لم يصل بعد إلى تفسيرها ، وإيمانه هذا نابع فى الأساس من تعامله مع أبطاله على محورين أساسيين : الزمن والقوة ، واعتقاده الراسخ بأن العلم هو الوسيلة الوحيدة القادرة على حل كل ما نراه غريبا وغير عادى . من خلال كل ذلك يضع الانسان أمام نفسه فى مواجهة روحية عنيفة . ففى «المهلة الأخيرة» نقف أمام «لوسيا»

فى حيرة وعجز شديدين ، لانعرف ولا نستطيع أن نعرف أى شئ عما يدور بداخلها ، وعن تلك القوة الإنتقامية الغريبة المسيطرة عليها . وهنا يبرز تساؤل : هل يمكن تفسير تلك الحالة ؟ نعم يمكن تفسيرها ، ولكن ليس إلى النهاية لأن الطبيعة الانسانية ماتزال مستعصية على الفهم حتى النهاية ، فما بالك بأمنا الطبيعة ! ومن ثم نعود مرة أخرى إلى العلم ، والعلم فقط . وكما قال البرت اينشتاين فى زمنه : «... العلم ليس كتابا منتهيا ، ولن يكون كذلك أبدا . كل نجاح هام يحمل فى طياته أسئلة عديدة ، وكل تطور يكشف مع الزمن جميع الصعوبات الجديدة والأكثر عمقا وتعقيدا» . من هنا ندرك لماذا تأتى البدايات والنهايات عند راسبوتين مفتوحة على الدوام . ومن ناحية أخرى نرى أن لديه ميلا واضحا إلى التأمل والتحليل ، والربط بين الثنائيات المعروفة : الإنسانية والفرد ، الحياة والوجود ، المادى والروحى ، القسوة والرحمة ، الخير والشر ... وتلك المقامات الأخلاقية مجسدة بتفاوت فى نماذج أبطاله وسلوكياتهم . هناك روايات كثيرة تهتم بالحركة : حركة المشهد ، حركة الأبطال ، حركة الفكرة ، حركة الزمن . وروايات أخرى تركز على ديناميكية الحركة وتغير الموقف . ولكن النص لدى راسبوتين مغاير من حيث تشكل حركة الروح التى تمثل الهم الأساسى والرئيسى بالنسبة له . وكلما كانت حركتها أقوى وأشد وأنشط ، كانت الحياة أكثر درامية . ولذا فهو يطرح أسئلة خاصة ربما تبدو بسيطة فى مظهرها مثل : لماذا نسبب لبعضنا البعض المتاعب والمعوقات التى تجلب بدورها التعاسة

والشقاء والألم ؟ وإلى أى مدى سيظل الناس غرباء عن بعضهم البعض؟ وهل يمكن أن نعيش فى راحة وهدوء وسكينة فى حين أننا نعرف تماما أن هناك إنسانا ما غير بعيد عنا يعانى ويتعذب؟ لماذا نحاول بقدر ما نستطيع الاستفادة من مصائب الآخرين واستثمارها ؟ وإلى متى سنظل نرى فى الشر تحديدا عدم وجود الشر ؟

العجـــوز

كانت العجوز طاعنة جدا فى السن . لم يعد وجهها قادرا على التعبير عن مشاعرها الخاصة بتلك التيارات المحتدمة فى مكان ما بداخلها ، وراح يزوى أكثر فأكثر بينما ظلت ملامحها على الدوام جامدة لا تتحرك ، وقد تَمَيّزَ هذا الجمود بصورة من الخراقة كانت شاهدا على أن وجهها مازال يواصل الحياة . كانت الأم أصغر من العجوز بما يقرب من أربعين عاما . وإذا اعتبرنا شهور السنة مقياسا للحياة الانسانية ، فالأم أيضا كانت تعيش فى الأيام الأخيرة من أكتوبر ، أو فى أوائل نوفمبر . نادرا ما كانت تضحك ، ولم تكن تبكى أبدا - يبدو أن كل ما هو ضرورى لبعث الضحك والدموع قد انتهى بالنسبة لها . وعندما كانت تضحك ، تأتى البسمة غامضة مبهمة وكأن قواها لم تعد كافية لذلك . أما الفتاة ، فكانت ماتزال بعد صغيرة . حينما كانت تبدأ لعبها ، تأخذ فى الطنطنة والخشخشة ، وتقفز مثل الدمية التى رُكِب فى أسفلها - من الداخل - مركز ثقل يجعلها تقعد على مؤخرتها مهما حاولنا إمالتها على أى من جوانبها ، إلا أنها كانت تذهب كل صباح إلى المدرسة لتتعلم القراءة والكتابة .

كن يعشن بمفردهن ، بدون رجال على الإطلاق ، فى بيت صغير بالطرف النائى للقرية . فقد مات العجوز عن عجوزه منذ زمن بعيد ، وهلك الزوج عن الأم فى أدغال سيبيريا منذ خمس سنوات ، ولم يولد أخٌ للفتاة .

عشن بمفردهن وكأنهن قد أصبحن استمرارا لبعضهن البعض : الأم ابنة العجوز ، والبنت ابنة الأم وحفيدة العجوز . وكأن جميع الفروع على شجرة نسبهم قد ضمرت وتلاشت ، وراحت فقط وريقات خضراء نابتة من الجذع مباشرة تخفق على ذؤابتها بوهن .

فى زمن ما من الأزمنة الغابرة ، كانت العجوز تعمل بالسحر والتطبيب . ومنذ ذلك الحين انقرض جميع السحرة والعرافين بينما بقيت وحدها من تلك الأزمنة ، إلا أنه ، منذ زمن بعيد ، لم يأت إليها أحد يرجو إنقاذ إنسان ، أو يطلب استدعاء الحظ قبل الخروج إلى الصيد ، وصرف المرض عن الغزلان . لم تشعر بالغضب ، أو بغبن الناس لها : فقد جاءت أزمنة جديدة ، وما كان يذهبون من أجله إلى الساحر أو العراف فى السابق ، يحصلون عليه الآن فى المستشفيات والمخازن التجارية أو فى المزرعة التعاونية . راحت العجوز طوال ما يقرب من ثلاثين عاما تعتنى بالغزلان ، بنفسها ، وتصطاد السمامير ، وقلما تذكرت عن ماضيها فى أعمال السحر والتطبيب ، فهو لم يمنحها أى شئ ، ومن ثم انفصلت عنه كما ينفصلون من زواج غير موفق ، ويكمن عدم التوفيق فيه ، ربما ، لكونه لم يستمر إلا لفترة قصيرة .

لم تكن العجوز تذكر بتاتا وجه عجوزها . فقط كان وجهه أرقطا ، وهذا كل ما تبقى منه . كانت تذكر أشياء أخرى كثيرة إلا ذلك ، على هذا النحو بالضبط ، لم تكن تذكر تلك الأحاسيس التى كانت تنتابها

عندما تتواثب في حذر وجنون ، وقت طلوع الفجر ، حول شعلة النار مطوّحة بذراعيها المرتخيتين المنهكتين في الهواء . أما الآن ، على حافة الموت ، فالقلق قد بدأ يساورها ، ويتسلل إلى أعماقها . استمر وجهها الجامد ، كسابق عهده ، لا يفصح عن شئ ، ولكن خلفه قد اختبأت آلام وعذابات من المستحيل كبحها كما لو أنها قد حلت محل قلبها وراحت تضخ الآن الدم ، لم تكن تخشى الموت ، وكانت تعرف أنه لا منقذ منه . لقد أدت واجبها الانسانى : ستبقى بعدها ، على وجه الحياة ، ابنتها التى أصبحت أمًّا ، وستبقى الفتاة التى سوف تصير أيضا فى وقت ما أمًّا . لقد استمرت ذريتها وسوف تستمر – كانت هى الحلقة المضمونة فى هذه السلسلة ، والتى اتصلت بها باقى الحلقات . كان يعذبها فقط أنها الساحرة الأخيرة ، وبعدها لا أحد . لقد امتلكت السر والقوة اللذين كانا يُعدان ، دوما ، على مدار مئات وآلاف السنين – عند آبائها وأجدادها، وعند آبائهم وأجدادهم – من الأمور العظيمة . والآن تأتى نهاية كل ذلك . فالانسان الذى ينهى سلسلة نسبه ، تعيس . ولكن الانسان الذى اختطف من جماعته ثروتها القديمة وحملها معه إلى قبره دون أن يفصح عن أى شئ لأى أحد – ماذا يمكن أن نسمى هذا الانسان ؟

جلست العجوز على فراشها ممَدّدة قدميها القصيرتين أمامها ، وعوت عواء خافتا دون ضجة . كان الفراش قائما إلى جوار النافذة التى تُرى من خلالها أرض آبائها وأجدادها ، وآبائهم وأجدادهم ، التى ظلت

صامدة بعد كل المآسى والنكبات ، ومازال صامدة . نظرت العجوز ، أثناء عوائها ، إلى هذه الأرض ، وطافت بذهنها كل تلك المآسى الفظيعة التى لن يبقى بعدها شئ . فقد كانت ، ببساطة ، عجوز طاعنة جدا فى السن ، تتأهب للرحيل ، وكل ما ورد على خاطرها بدا لها شيئا لامفر منه.

جاءت الأم ، فصمتت العجوز . راح وجهها الجامد ، فى تلك اللحظة ، يتابع الأم التى أخذت تقعقع بصوت الأطباق والصحون فى المطبخ غير عابئة بها . صاحت العجوز فى إلحاح منادية على الأم :

- إى ! تعال هنا .

أقبلت الأم ، توقفت أمام السرير دون أن تتجاسر على الجلوس وكأنها تخشى عدوى الموت . قالت العجوز بكل ما تبقى لديها من وقار وكبرياء :

- أنا .. الساحرة ..

كانت الأم تعرف ذلك . فواصلت العجوز بصوت يقطر مرارة وألما :

- لا أحد بعدى ، أنا فقط . مستحيل أن تبقى جماعتنا بدون ساحر. ستحل كارثة .

- ماذا تخرفين ؟ - سألت الأم بخشونة .

فزعت العجوز . خشيت أن تنصرف عنها الأم ، فأسرعت قائلة :

– لاداعى للسحر ، لاداعى ، لاداعى . أنا لم أعد أسحر منذ زمن بعيد ، ولكن يجب أن يبقى منا ساحر . سأموت ولن أبقى . من الضرورى أن يظل منا ساحر .

– لقد خرفت – قالت الأم فى غضب وانصرفت إلى المطبخ .

استدارت العجوز نحو النافذة وأخذت تعوى ثانية . انطلقت من أعماقها أصوات حزينة متواصلة لم تؤثر على ملامح وجهها . خرجت الأم من المطبخ ، راحت تتطلع إلى العجوز متأملة دون أن تتفوه بشئ . ولولتْ العجوز فى ارتياح ، وقد حملّتْ ولولتها هذه كل ما يصطخب فى داخلها من حسرة وخوف . لقد انتزعوا منها الأمل الأخير ، وودَّعته هى بدورها ، وَدَّعَتْ نفسها قبل أن تفقدها إلى الأبد ، ولم يستطع أحد أن يسلبها هذا الحق – أن تُوَدِّع نفسها . فى هذا الوقت أقبلت الفتاة راكضة ، فصرخت الأم :

– كفى !

لم تصمت العجوز مباشرة . راحت تكتم عواءها وتخفيه تدريجيا وكأنما قد رحلت معه بعيدا ، فأبقته بداخلها ، فى أعماقها . دفنته حتى ران الصمت تماما فى الخارج . وعندما التفتت ، لمحت الفتاة التى كانت تنظر إليها في حزن وكآبة ودهشة من على عتبة الباب . التقت عيناهما ، كتمت العجوز عواءها فى أعماقها ؛ لأنه لم يعد ضروريا لها الآن ، تركزت كل قواها فى شئ آخر – فى التفكير بأن الفتاة سوف تعيش أطول من الأم .

– إى ! – صاحت منادية إياها ، وأومأت برأسها – تعال هنا .

اقتربت الفتاة . أقبلت الأم من المطبخ ووقفت إلى جوارها . أشارت العجوز إلى الفتاة بيدها ، وطلبت من الأم فى حزن وأسى :

– فلتكن هى الساحرة .

– كفى ! – قاطعتها الأم .

انفجرت العجوز فى الندب والنواح :

– ستحل كارثة . لن أبقى ، ستكون مصيبة . يجب أن يبقى ساحر .

– ماما ، ماذا تقول ؟ – سألت الفتاة فزعة ، وابتعدت عن الأم .

– أنا آخر ساحرة – انخرطت العجوز فى الندب والنواح ثانية – لا أحد بعدى ، سأموت ، يجب أن تكون هى الساحرة .

ردت الأم مسرعة :

– عجوز طاعنة فى السن ، إنها تموت .

– والسحرة ؟

– كانت ساحرة فى الماضى البعيد ، وتذكرت الآن . لاتخافى ، إنها عجوز طاعنة فى السن ...

راحت العجوز تندب وتولول ، فصرخت فيها الأم بأن تكف . صمتت العجوز وأغمضت عينيها . راحت تتذكر ، فى الزمن البعيد ،

عندما كانت صبية شابة وجاءها رجل بوجه أرقط ليخطبها – كل ما تبقى منه الآن فى ذاكرتها . تذكرت كيف دخّنا ، فى المساء الأول ، من غليون واحد متمطقين ، وظلا طوال الوقت يداعبان بعضهما البعض ويتناغشان فى هدوء . ولو كانت العجوز قادرة ، لابتسمت الآن . كان رائعا أن تتذكر ذلك ، فراحت تواصل الذكريات .

فى الليل ماتت العجوز ، ودفنوها بعد يومين . جاءت القرية كلها لوداعها . مر الناس ببطء من أمامها ، تفحصوا وجهها الجامد ، الذى أصبح لجموده الآن معنى . ابتعدوا وتمتموا – لسبب ما لم يتحدث أحد بصوت مسموع . بعد ذلك فقط ، عندما نتأت تلة صغيرة أخرى فى المدافن – مساوية لتلك المساحة التى سيشغلها جسد العجوز فى الأرض، بدأ أمين المزرعة الجماعية بالحديث . قال بصوت عال كى يسمع الجميع :

– كانت العجوز إنسانا جيدا . منذ وقت قريب جدا ، كانت تصطاد السمامير بكفاءة لاتقل عن كفاءة الرجال .

كانت الفتاة تقف إلى جوار الأم . رأت بنفسها كيف وافق الناس بهز رؤوسهم . وراح الأمين يواصل كلامه :

– أثناء الحرب ، اشترت العجوز سندات أكثر من الجميع لكى تكون هناك أموال كثيرة لدى حكومتنا .

بكت عجوزان تقفان بالقرب من الفتاة بصوت عال . وقال أحد ما في الزحام :

– لا تغضبى منا .

– لاتغضبى منا – رددت الأم .

فجأة صاحت امرأة ما :

– لقد اشتغلتُ مع العجوز فى رعى القطعان . كنت أتمنى دائما العمل معها . لم يحب أحد الغزلان ، والعمل بهذا الشكل مثلها .

ومرة أخرى صَدّقَ الناس بهز رؤوسهم ، بينما ظلت الفتاة الواقفة إلى جوار الأم تنتظر فى رعب أن ينطق أحد ما منهم بأن العجوز ، فى زمن ما فى الماضى البعيد ، كانت ساحرة . لكن لم يتفوه أحد بذلك .

أخذ الناس يتفرقون . نسوا ذلك الأمر ، ولم يتذكر أحد أن العجوز فى زمن ما كانت ساحرة .

– ماما ... – أوقفت الفتاة أمها ، وسألت :

– ماما ، لماذا لم يقولوا لها ذلك عندما كانت على قيد الحياة ؟ كانت من الممكن ألا تتذكر أنها كانت ساحرة ، وكان من الممكن أن تدرك أنها كانت انسان آخر .

لم ترد الأم .

فى المساء ، جاءت الفتاة بمفردها إلى مقبرة العجوز . لم تكن الشمس قد غابت بعد ، والأرض المنبوشة التى وارت جسد العجوز

راحت تلتئم حثيثا مع أرض المدافن البور ، وكان صياح الديكة وعواء الكلاب يتعالى فى القرية .

استدارت الفتاة بوجهها صوب القرية ، تنحنحت فى قلق كما لو كانت في امتحان ، وبصوت جهورى واضح وجلى صاحت :

– كانت العجوز فى زمن ما ، فى الماضى البعيد ، ساحرة . ولكنها انصلحت بعد ذلك . أثناء الحرب اشترت سندات أكثر من الجميع ، وبعد الحرب كانت تصطاد السمامير بكفاءة لا تقل عن كفاءة الرجال . وعندما كانت العجوز تشتغل بتربية العجول ، كان كل الناس يودون العمل معها.

آنئذ صمتت الفتاة . لم تكن هناك كلمات أكثر ، فهزت رأسها عدة مرات موافقة مع نفسها . وبعد ذلك فقط عادت إلى القرية .

نَتَاشَا

منذ وقت غير بعيد رقدتُ فى مستشفى بمدينة كبيرة غريبة حيث أجريت لىّ عملية شعرتُ بأنها مزعجة نوعا ما ، إلا أنها مرت بنجاح وتوفيق . ولكن الحديث يدور ليس عن ذلك الموضوع ... فقد قابلتُ هناك ثانية ، فى المستشفى ، نَتَاشا .

... «قابلتُ ثانية» – هذا صحيح ، وغير صحيح . وما أود الحديث عنه ، أنه يوجد تواصل غريب للحلم ، وربما ليس لحلم واحد ، مع الواقع الذى أسبغ على هذه القصة معنى كاملا وإن كان غير واضح حتى النهاية ليبقى ، على الأرجح ، أكثر غموضا وابهاما . فالكشف عن كل شئ أمر مستحيل ، بل وغير ضرورى أيضا ، حيث ما يتم الكشف عنه سرعان ما يصبح عديم الفائدة ، ثم يضمحل ويتلاشى . وبرغم أننا كثيرا ما أفسدنا بذلك أروع ما فى عالمنا ، الأمر الذى لم يعد علينا بنفع يذكر ، فإننا ننزع ثانية بطبيعة طفولية – خالية من الأعباء – إلى الأحاسيس والهواجس الداخلية ، وإلى كل ما هو قريب منها .

رأيت نَتَاشا ، على ما يبدو ، فى اليوم الثالث من وجودى بالمستشفى . لكن لماذا لم يكن ذلك فى الصباح عندما تبدأ الممرضات نوباتهن ، أو خلال اليوم الطويل الرتيب . كيف تسنى لىّ طوال ذلك اليوم ألا أصادف نَتَاشا ، وأن يظل ذلك حتى المساء . لا أدرى ، فقد كان هناك شئ ما غير عادى . قبل نهاية النوبة كالعادة ، مر الطبيب المناوب

على المرضى وبرفقته ممرضة . كنتُ مستلقيا فى فراشى ، أقرأ ، عندما دخلا : رجل مكتنز البدن ، بصوت غليظ ، مفرط النشاط ، فى أواخر شبابه الذى حافظ عليه بجهد ومثابرة ، وفتاة لاتزال شابة تماما ، طويلة القامة ، مكتنزة قليلا ، ولكنها فى اكتنازها هذا بدت على نحو ما أنيقة جدا دون إسراف ، مغرية كما لو كانت قد خُلِقَتْ هكذا منذ البداية ، بوجه رحيب ناعم عامر بالطيبة لو قابلته حتى فى أى مكان باستراليا أو نيوزيلندا من الممكن ، دون توجس ، أن تبدأ فى التحدث إليه بالروسية . هذه كانت نَتَاشا . عندما دخلتْ ورأتنى أحمر وجهها ، وارتبكتْ . لاحظتُ ذلك ، ولاحظتْ أننى لاحظتُ فازداد اضطرابها . وبينما رحتُ أجيب على أسئلة الطبيب الاعتيادية عن الصحة ، أخذتُ أراقب بهدوء الفتاة التى تحاول الاختفاء وراء ظهره ولا يمكنها بإية حال التموضع خلفه ، ثم تعرفتُ عليها أكثر فأكثر . لم يكن هناك أى شك فى أننى التقيتها من قبل ، صادفتها ليس فى هرج ومرج الشوارع عندما يمكن للوجه الذى يمر سريعا ، ولمرة واحدة ، ألا يعلق طويلا بالذاكرة ، وإنما فى مخالطة مباشرة غير عفوية أو تافهة بالنسبة لىّ ، والتى من الضرورى أن تكون قد حدثت خارج نطاق الأمور المألوفة . ولكن كان هناك شئ ما غير مفهوم ، وعبثا حاولتُ تنشيط ذاكرتى إلا أننى ظللت لا أتذكر . وبينما كانا ينصرفان ، لم تتمالك نتاشا نفسها بالقرب من الباب، فسمحت للطبيب أن يتقدمها والتفتت نحوى بابتسامة وَجِلَةٍ مُشَجِّعَةٍ ، وكأنها تؤكد بأننى لست على خطأ ، وبأنها هى فعلا .

انقلبت كل الأيام التالية ، بالنسبة لى ، بعد ذلك إلى عذاب . حاولتُ التذكر فلم أستطع . وكلما راجعتُ ، بشكل أكثر همِّةً وعزيمة ، كل ما جرى معى فى السنوات الأخيرة ، شعرتُ بيأس أكثر : فى مكان ما ، ليس هناك ، كان ذلك ، وشئ ما ليس من هناك ... ويبدو أن نتاشا كانت تنتظر ، فراحت تراقبنى خلسة فى صبر وعتاب . كنت بمجرد أن أرفع نحوها عينين تبحثان عن نأمة مقصودة أو غير مقصودة ، تُحَوِّل عينيها فى الحال وترتبك. وكم كانت تلك القدرة على الارتباك والخجل ، الغائبة اليوم تقريبا عن الفتيات ، لطيفة وطبيعية فيها ، ومتوائمة معها ، مع وجهها العريض وجسدها الكبير ، الأمر الذى يمنعك بعد الدهشة الأولى أن تتصور نتاشا غير ما هى عليه ، بينما يمنحك التطلع إليها متعة وكأن روحك نفسها تشتعل ، تتوهج وتفيض بنزق حلو شفاف . مرضى كثيرون يتعالجون هنا ، كانوا تعساء فى مرضهم بسبب استحالة إخفائه ، ولأنه كان يعلن عن نفسه – بمعنى الكلمة – على وجوههم . وبالنسبة للشخص الصحيح المعافى الذى لايعرف ما هذا ، كان ذلك المرض يعتبر دمامة فظيعة لايقدر أى إنسان أن يتمالك نفسه أمامه ، هذا من جهة الانسان الصحيح . أما المرضى فكانوا يشعرون بأنهم مثل البعبع المخيف بغير إرادته وهل سيوافيهم الحظ ويشفون ، أم أنهم لن يصيروا ثانية ، فى أى وقت من الأوقات ، أصحاء معافين ، وكما يقال بصحتهم ، هذا بالطبع بالنسبة للمرضى الذين كان العمل معهم فى غاية الصعوبة بسبب يأسهم ونزقهم . ومع ذلك ، فأمام وَجَلِ ورقة نتاشا كان الجميع لسبب ما

يتهيبون ويخافون . لم أسمع ولو مرة واحدة أن أحدا ما حتى أكبر اليائسين قد أظهر فى حضورها فظاظة وخشونة أو نزق وتدلل ، وإلا بدا ذلك ليس فقط بذيئا ، وإنما كان معناه أن قوى المريض قد انهارت تماما وينبغى على وجه السرعة - إذا كان المرض يسمح - إخراجه وتركه يعيش ويستريح بين أهله ، وبعد ذلك يمكن استدعاؤه ثانية . هكذا كانت نتاشا الصموتة الخجولة الوديعة التى لا تَرِدُ على ذهنها ولو حتى فكرة الشكوى ، قد أصبحت بالنسبة للمرضى والأطباء أكثر من مجرد ممرضة تقوم بواجباتها بدقة وإخلاص . كيف يمكن تسمية ذلك ؟ ... لقد كانوا ، على الأرجح ينظرون إليها كانسان ليس من هذا العالم ، كواحدة من هؤلاء الناس الذين بدون غرائبهم وكراماتهم وعجائبهم لَكُنَّا ، نحن أناس هذا العالم ، قد فقدنا عقولنا منذ زمن بعيد فى خضم منافعنا ومطامعنا الهائلة ، ولَكُنَّا منذ زمن قد حطمنا رؤوسنا لو لم توقفنا براءتهم الرقيقة .

كانت نتاشا تناوب مرتين فى الأسبوع ، ولم تكن تفصل بين النوبتين أيام متساوية ، إنما على نحو ما خاص بها ، كان ذلك وفقا لجدول غير ثابت . كانت تظهر على الدوام بجوار منضدتها بالممر فى هدوء دون أن يشعر بها أحد : لم تكن موجودة لتوها - وها هى ، فجأة ، تتحرك بشكل غير مسموع ، تضبط شيئا ما بالأوراق الموجودة فى أشيائها ، تفتح خزانة الأدوية ، تذهب إلى المرضى فى عنابرهم .

في كل مرة ، كلما رأيتها ، كنتُ أرتجف - كان ذلك قريبا جدا حتى أننى أتذكره ، كنتُ قد قمتُ بحركة عصبية مفاجئة تجاه نتاشا . لاحظتُ أنها رفعتْ وجهها تجاهى فى توقع ، تجمدتُ تماما قبل أن استيقظ من وقع المفاجأة ، بدا لى أننى تذكرتُ ، ولكن بسبب العجلة والتحرق أو شئ ما آخر ، لم أتمكن من القبض على الذكرى . وبينما تهدل وجه نتاشا فى ضيق ، واعترته حمرة الخجل ، ألقيتُ عليها التحية فى ارتباك ، وابتعدتُ . ومرة وراء أخرى حاولتُ ولكن دون جدوى .

وصل الأمر إلى أننا رحنا نتحاشى بعضنا البعض - لم أكن ألجأ إليها إلا فى حالات الاحتياج الضرورية والملحة . أما هى ، فنادرا ما كانت تأتى إلى العنبر . ولكن فى مخزننا ، أو فى قسمنا المكون من ستة عنابر ، كان من الصعب تماما ألا نتقابل ، حيث كان كل منا - أنا وهى - مضطرا لتنفيذ تعليمات الطبيب . كانت نتاشا فى تلك الحالات تقوم بعملها فى عجلة وتنصرف ، حتى شعرتُ فى النهاية بأننى مذنب : إذ إنه كان بامكانها أن تتصور أننى أذكر كل شئ بشكل جيد ، ولكن لغرض ما فى نفسى لا أود المكاشفة . أما أن أسألها عما كان ، نظرا لأننى لست فى حالة تتيح لى التذكر ، بدا لىّ أيضا شئ محرج - إذ إنه من الممكن ألا يكون هناك أى شئ ، وأننى قد قمتُ باختلاق كل ذلك بسبب تهيؤات المرض ، ولمجرد التطفل والفضول ، وجذب الاهتمام ليس إلا.

ظللتُ أراقبها فى الخفاء .

فى بعض الأحيان كانت تطيل النظر ، مستغرقة فى التفكير ، فى النافذة الموجودة بالمر مصوبة عينيها نحو جهة ما فوق الشارع والبيوت إلى أن تصل إلي شئ ما هناك تعتورها السعادة عند رؤيته ، حتى إن وجهها كان يتخضب ليس بحمرة الخجل ، وإنما بسورة واحتدام إحساس أنيس ملاصق لها ومفهوم فقط لديها . بعد ذلك لاحظتُ مرة ثانية نظرتها لنفسها - تارة ثاقبة نافذة ، وفطنة مليئة بالهواجس والهموم ، وتارة زائغة تراوح فيها فكرة ذاهلة حائرة ، وتارة أخرى سريعة خفيفة مداعبة فى حرص شديد ...

فى الأسبوع الأخير ناوبت نتاشا لسبب ما كثيرا - ربما تكون قد نابت عن إحدى صديقاتها التى مرضت . ليس هناك ما يثير الدهشة فى أنه قد كان من نصيبها أن تنقلنى إلى العملية . وبينما كانت ممرضة غرفة العمليات تسير مُعَدِّلة العربة من الأمام ، راحت نتاشا تدفع من الخلف . من خلال الملاءة التى غطتنى ، رأيتُ أمامى عينيها الواسعتين فقط ، اللتين بدتا كبيرتين للغاية فى وجهها المنكس . فى ذلك الصباح لم أكن أقوى على التذكر . وقد خمنتُ من الضوء الكهربائى الباهر أنهم حملونى إلى غرفة العمليات . ظلتْ نتاشا فى الخارج ، أمسكتْ بالباب وراحت تطالع من الممر كيف أوصلونى بسرعة إلى الطاولة وأخذوا يساعدوننى على الانتقال إليها . وبعدما اضطجعتُ كما ينبغى ، أدرتُ رأسى نحو الباب - كانت نتاشا لاتزال تطالعنى ، ولكنها سدت الباب أمام نظراتى . عندئذ بقيت وحيدا بين هؤلاء الناس الذين كان من

الصعب التعرف على أى منهم بوجوههم المغطاة . وحتى أصواتهم التى بدت مدوية ، كانت ترن بنغمة معدنية واحدة . حاولتُ الاستماع اليهم ، لكننى لم أفهم شيئا ، فقد كانوا يتحدثون بلغة غير مفهومة . بعد عشر دقائق ، دون أن أعى لنفسى ، كنت قد استغرقت فى النوم .

... كان من الصعب تماما بعد ذلك أن استيقظ . أحيانا كنت أعود إلى وعىٍ كى أشعر بأننى موجود ، فأحس بقشعريرة وألم حاد ، ثم أقع مرة ثانية فى غيبوبة ثقيلة لا نهائية . كانت تصل إلى أسماعى أصوات نسائية . مَيَّزتُ الصوت الأول ، ثم الثانى اللذين طلبا منى ألا أنام ، لكننى لم أكن أقدر ألا أنام . كان ذلك فوق طاقتى . كل شئ كان فوق احتمالى ، كان بامكانى فقط النوم – وحتى ليس النوم ، إنما الوقوع فى تلك الاغماءة الخانقة ، والتى بالرغم منها كنت أتنفس بوعى أنه سوف ينفتح فيها مخرج فى أية لحظة . وبالفعل فقد راح ينفتح تدريجيا بداخلى . شعرت كيف تناولوا يدى لجس النبض ، وكيف قاسوا حرارتى ، وغرسوا الحقن . أتذكر إحساس : أننى أحاول النهوض من بئر عميقة مليئة بغاز خانق لا أدرى كيف سقطتُ فيها بطريقى ... أسرع كى لا أختنق بداخلها ، لكننى كنت أحلّق وأسبح ... وليس هناك ما أتنفسه . اتضح أننى كنت مغطى بأكياس الماء الدافئ . تقلبتُ مُصْدِرا أنينا ، أدركوا – على نحو ما – ما يحدث لىّ ، أزالوا أكياس الماء ، صارت حالتى أهون . فى الضباب القاتم راحت تظهر لىّ أحلام وخيالات متفرقة ، غير مترابطة إلى ذلك الحد الذى بدت عنده وكأنها أحلام أناس آخرين

غيرى تتطاير إلىّ ، وربما لم تكن فقط من الناس . واحد منها لم أكن أود لسبب ما أن أتخلص منه نهائيا حيث أفعمنى بلذة غامضة ، وذكرنى بشئ ما . وذهلنى تماما عندما اختفى على هذا الحال .

فى النهاية فتحتُ عينىّ ، رأيت أننى راقد ووجهى نحو نافذة رحيبة واسعة تحتل الجدار بأكمله . كان ضوء النهار مايزال ساطعا فى الخارج – الشئ الوحيد الذى لاحظته ثم استغرقت ثانية فى النعاس . لكننى الآن قد تمالكت نفسى ، لم أعد أسمح لها بالسقوط فى النوم العميق . كنت أسمعهم عندما يقتربون منى ثم يبتعدون ، وأسمع أصوات النساء اللاتى يتحدثن مع بعضهن البعض ، ويجبن إنسان ما على استفساراته عنى . بعد ذلك توقف أحد ما على رأسى وراح ينتظر ريثما أفيق . كانت نتاشا . بدت قامتها فى العتمة أطول وأخف وكأنها كانت تتبخر فى الهواء . عدتُ فى الحال إلى كامل وعىّ . بصوت سعيد واهن وأنا لا أكاد أسمع نفسى ، رددتُ فى اجهاد : – نتاشا ، أنا تذكرتُ ، تذكرت ... لقد طرْنا معا ...

أومأت لى برأسها فى قلق ، مسحت على جبهتى الملتهبة بكفها الطرية الرقيقة ، انصرفت هكذا بسرعة لدرجة أننى تصورت أنها قد ركضت .

* * *

مـا تذكـرتـه كـان يعـيش بداخلى منذ زمن بعـيـد ، لا أدرى من أين جاء. أغلب الظن أننى رأيت شيئا فى الحلم ، لكن ليس بصورة كاملة . فيما بعد اكتملت تلك الصورة عندما أمعنت التفكير حول ذلك فى إهتمام ، وكالمعتاد ، بتلك التصورات والافتراضات الارادية الحرة التى تتشكل بداخلنا إلى مالا نهاية . كان من الصعب عدم التفكير فى ذلك ، فنحن بشكل لا ارادى نعلق أهمية كبيرة ، ونبحث عما يفسر وينبئ بالمغزى والمعنى فى تفاصيل الأحلام ، خاصة وأنه من الممكن العثور على كل ذلك هنا .

لكن لماذا لم أحزر فى الحال أنها هى نفسها ، تلك الفتاة من الحلم؟ كان التطابق بتلك الدرجة من الكلية التى جعلت هذا الوجه يرابط على الدوام أمام عينىّ بلحمه ودمه مما كان يحتم علىّ أن أعرفه فى نفس اللحظة دون إبطاء . التقيتها – تحيرتُ ، تعذبتُ بالذكرى التى لازمتنى طوال أسبوعين ، وبسبب ملازمتها لىّ – على الأرجح – كنت أعانى وأتعذب – فنحن لم نعتد أن نثق بكل ما هو قريب منا . والآن فهذه الصورة التى أرقتها تلك العقبة المزعجة راحت تنبعث وتنتعش أمامى بشكل أكثر وضوحا وجلاء ، وأنا طوال الوقت أميل أقل فأقل للاعتقاد بأنها قد انحدرت إلىّ من الحلم . الألوان ، الروائح ، الأحاسيس – لا ، هناك العديد من التفاصيل تبدو فى الأحلام على نحو مختلف تماما .

الآن أرى ، كما لو كان فى اليقظة ، مرجا كبيرا فى غابة على الجبل (وهو ، هذا المرج ، موجود ، رؤيته لاتشكل أية صعوبة) مليئا

بالزهور – ورود الحب الخضراء الزاهية ، والحمراء الجرسية ، والأقحوان الأبيض والبنفسجي الفاتح . أجلس بينها ، على الأرض ، في توقّع ما قَلِق ومُبْهِج يفعمني أكثر فأكثر حتى أنني أشرع في التلفت حولي ، والبحث عن شئ ما . أمامي مباشرة بحيرة بايكال محمولة باتساع ، متدفقة جامحة صوب المدى ، وهناك بعيدا ترتقي إلى السماء . من اليسار نهر أنجارا ، وفي الأسفل ، تحت الجبل يقع منزلي الصغير الذي نادتني منه قوة مجهولة آمرة ، اجتذبتني إلى هنا . الشمس ، السماء زرقاء صافية ، الرياح تأتي من بايكال معتدلة رطبة ، والمياه تتألق من أسفل في زرقة وبهاء – أواصل التلفت حولي باهتمام زائد وشئ ما يختلج في صدري . يتزايد قلقي ، أتوقع شيئا ما أنا نفسي لا أعرفه ، لكنني أنتظر في ثقة واضحة وتامة بأن حياتي كلها سوف تتغير من جراء ذلك . ها هو حفيف الأعشاب يتناهى إلى سمعي ، ألتفتُ ، أرى فتاة مقبلة بابتسامة ، في فستان صيفي بسيط ملتصق بجسدها التصاقا شديدا ، حافية ، بشعر أشقر فاتح ينسدل في حرية على كتفيها – لولا القدمان الحافيتان ، لكان كل شئ فيها طبيعيا ومألوفا . لكنني عندئذ تقبلتُ القدمين الحافيتين كشئ بديهي ، وقد حدث ذلك فيما بعد فقط ، بعد تحليل كل تفصيلة والتفكير فيها جيدا ، تعثرتُ : لماذا حافيتان ؟ وما معنى ذلك ؟ راحت تقترب ، نهضتُ مندفعا لاستقبالها . لايمكن أن يكون هناك شك بعد : إنها هي التي أنتظرها . تدهشني فقط بعض التفاصيل البسيطة حيث بدت أطول قامة ، وأبدن مما كنت أتصور

على الرغم من أنه منذ دقيقة واحدة فقط قبل ذلك لم يكن باستطاعتى تخمين ذلك . مع إحساسها بارتباكى ، راحت تبتسم . ومن ابتسامتها أشرق وجهها ذو الملامح الكبيرة الواضحة بنورِ رضاءٍ عجيب عن النفس بدا نادرا فى روعته .

راح ، بظهورها ، كل شئ حولنا يتغير دون أن نشعر ، يتشكل من جديد بدقة ومن أجل حدث ما . المرج يتحول إلى حقل ممتد نحو أنجارا، مفروشا فى كل الأنحاء بكثافة بالورود التى بدت مثل شعر ممشط ومفروق من المنتصف ، حيث الحقول من ناحية تنحدر نحو بايكال ، ومن ناحية أخرى نحو الجبل ، ونحن نقف فى المنتصف . الشمس التى كانت معلقة لتوها فوق رؤوسنا راحت تنحدر نحو الغروب بينما يهبط نورها الدافئ إلى أسفل ، على الأرض . صارت بايكال أكثر صفاء ونقاء ووضوحا ، أصبح مداها المرتفع صوب السماء أكثر تجليا وظهورا . أنظر إلى كل ذلك دون دهشة ، وكأنما هذا ما ينبغى أن يكون . لكن الحيرة تتأجج فى روحى ، أخشى ألا أستطيع أن أفعل شيئا ما ، وأُخَيِّب أمل أحد ما . إذا لم أستطع وخَيَّبتُ الأمل ، سأموت ولن يبقى لى أثر . لكن يُخَيَّل إلىّ ، على نحو غريب ، أننى لن أصبح أنا حتى وإن تمكنتُ من الفعل ولم أُخَيِّب أمل أحد . يتملكنى كبرياء ، وحسرة على نفسى .

تسألنى الفتاة :

– مستعد ؟

– لا أدرى . لا أستطيع .

تقول فى جزع :

– كيف لا تستطيع إذا كنت تقدر . لو لم تكن تقدر لِما أمرتك بالمجئ إلى هنا .

– هل أنت التى أمرتنى بالمجئ ؟ – لا أشك فى أن هذا هو ما حدث بالفعل ، لكننى أسأل لمجرد كسب الوقت فقط .

– لنذهب ! – تأخذنى من يدى ، توقفنى على طرف الحقل ووجهى صوب أنجارا حتى صار ضوء الشمس يضربنا فى ظهورنا – لنركض ! هيا ، لنركض ! نركض !

أشعر بأننى أركض إلى جوارها ، أركض أسرع وأخف . تُفْلِتْ يدى ، تبقى فى مكان ما ورائى ، لكننى أسمع صوتها الذى يطالبنى بالركض أسرع . أندفع فى قفزات واسعة ، يبدو لى أننى أواصل الركض حتى ألمح فى الأسفل السقف المعدنى ذا الانحدارات الأربعة ، الذى يبدو سابحا هو الآخر ، للمنزل الذى يعيش فيه رفيقى . أصيح بشئ ما ، تارة له ، وتارة لكل من تبقى على الأرض ، وأسرع فى الركض . قدماى تطولان ، يداى تمتدان إلى الأمام ، يلتقطنى ضوء الشمس فى عصفة قوية ، يحملنى إلى أعلى . أجد الفتاة بجوارى ، تحاول بابتسامة أن تهدِّأ من قلقى وتوترى ، لكن قواها لاتسعفها حتى على ذلك . يغمرنى إحساس عارم بالتفاؤل يكاد قلبى يتوقف له ، أتحرك مضطربا فى

عشوائية ، أحلّق سابحا باندفاعات شديدة وقد أصبح الطيران لا يثير غورى . تتملكنى الرغبة لعمل شئ ما ضخم ، نهائى وقاطع ، أود العودة نحو الشمس التى استشعر منها جذبا لذيذا ، أندفع إليها ، لا أتوقف ، لكن الفتاة تشير إلىّ بيدها فى حذر : إلى أين أتوجه . نحلق سابحين فوق أنجارا ، نصنع دائرة ، وأخرى فوق منبعه ، نذهب بعيدا عن الضفاف فى بايكال . أهدأ تدريجيا ، يصير إحساسى العارم أقل فأقل ، يصبح بعد ثورته وجيشانه عاقلا متفكرا . الآن أتأمل فى إمعان ، أسمع ، أتدبر فيما يجرى بالحياة من حولى . نصل إلى منطقة البخار عند ذلك الحد الفاصل بين الهواء اليومى الساخن ، وبين ذلك الهواء الرطب الذى يمكن الاستلقاء عليه فى استكانة وهدوء دونما حركة تذكر . يرتفع متموجا ، نتهادى عليه كما لو على موجة متعبة أتت من بعيد ووصلت إلى الشاطئ ، ثم راحت تضمحل وتلهو بجواره . السماء تسكن ، تهدأ وتبرد ، أرى بوضوح على الشاطئ ظلال الطرق والممرات المرسومة ، والقنوات الصغيرة لمياه ما بعد الذوبان متقوسة تتشعب فى اتجاهات مختلفة ، خالية من المياه ، ولكن من خلال آثار التقعرات البسيطة عليها يتضح أن هناك من مر فوقها ، لم يدهشنى كثيرا أنه من الممكن أن تهتز وتساقط من أقل نفخة ، وأنها تضئ ، تشتعل فى أماكن مختلفة بألق غامض متقطع .

الشمس تميل إلى أسفل ، موسيقى الغروب العظيمة المهيبة تبلغ درجة من الرضا والسلام حتى يخيل أنها السكينة والهدوء . وفى هذا

الهدوء تتناهى إلى السمع بوضوح أصوات حفيف يتخللها صوت ما لتيار هواء نازل يمس سطح الماء الأملس الناعم . هناك أيضا ، على الشاطئ ، فى تلك الغابة فوق الجبل يصأصئ عصفور بصوت مفطور ، أسمعه ، ليس متوافقا مع الايقاع العام للموسيقى ، لقد صأصأ ثم تلعثم ولفه الصمت . أتلفتُ حولى فى جزع : ماذا سيحدث له ؟ أرى وأسمع كل شئ ، أشعر بنفسى قادرا على فهم وإدراك السر الرئيسى الموحد والمفرق لكل شئ ، ذلك السر الذى ولدت منه الحياة من البداية حتى النهاية ... وها هى تتكشف لى بكل همومها المرة وأحمالها الثقيلة ، أخطو على أقرب الطرق ... فجأة تلتفت نحوى الفتاة قائلة :

– حان وقت العودة .

تشير نحو الشاطئ . أجيب فى توتر وفزع :

– لا ، لا . لنواصل ، أنا لا أريد العودة .

– الشمس تغرب . لنعُد – تلح فى لطف ونفاذ صبر ، وفى صوتها مهابة وجلال .

أدرك : لقد آن الآوان . نحلّق سابحين فى اتجاه الشاطئ ، وقد خيمت على الأرض ظلال زرقاء ، والأصوات التى فقدت موسيقاها تنسكب فى صوت صفير واحد أخرس . نهبط على نفس المرج . أدفع بقدمى ، أخطو خطواتى الأولى التى تولّد فى جسدى كله ألما عظيما . الفتاة تراقبنى بابتسامة وجلة مجهدة . أسألها :

- وبعد ؟

تتصنع هيئة وكأنها لاتفهم :

- ماذا بعد ؟

- إذا لم يكن هناك شئ بعد ، إذن فلماذا كان ذلك ؟ إننى أود أن أواصل ، أريد الاستمرار . لم يعد هناك إلا مسافة قليلة .

ترد بعد أن صمتت برهة :

- سوف أعود .

فى هذه المرة تتحدث دون ابتسامة . ألاحظ أنه بدون الشمس قد توترت ملامحها وارتعبت بحدة ، قامتها تبدو خرقاء غير رشيقة . هى تعرف ، بداهة ، إلى أى حد تبدلت . لمستنى بيدها الرقيقة ، وراحت تتوارى بعدما حاولت محاولتها الأخيرة كى تبتسم .

أنظر فى أثرها ، أشعر فى نفسي وفيها بذلك التوتر الذى وحدنا بانتقاء غامض ومبهم مرتبط بكل شئ ، وفى كل شئ حولنا . أشعر بتلك الكآبة ، وبذلك الأسى . الآن فقط ، بعدما طرتُ ، ونظرت إلى الأرض من أعلى ، عرفت فى نهاية الأمر الحدود الحقيقية للفزع والحزن والكآبة . وها هى تتوارى . العتمة المتكاثفة تخفيها سريعا ، لكنها قالت : سوف أعود .

* * *

بعد يومين من إجراء العملية ، نقلونى إلى العنبر السابق . وبينما رحت أتعثر فى سيرى بالممر فى رفقة الممرضة ، تطلعت من بعيد : وإذا بنتاشا اليوم مرة أخرى ؟ لا . لم تكن هى . كانت تناوب فتاة لطيفة ، ولكنها فتاة أخرى . أخذتنى من يد الممرضة ، أرقدتنى فى الفراش ، ثم راحت تخبرنى كم مرة ، وفى أى ساعات قد سمحوا لى بتناول الدواء وأخذ الحقن . أصغيتُ فى استسلام ، ورحت أتخيل كيف سألتقى أنا ونتاشا عندما تعود ، وعن أى شئ سوف نتحدث ، وعلى هذا النحو كان ينتظرنا لقاؤنا غير العادى.

انتظرت يوما ، واثنين ، وثلاثة – لم تظهر نتاشا . بالطبع كان من الجائز أن تكون قد تراكمت لديها أيام راحة عوضا عن النوبات الاضافية ، وكان من الممكن أن تكون مريضة . كان من الممكن أن تكون هناك أشياء كثيرة ، لكننى بدأت أشعر بأن كل هذا ليس كذلك . عندئذ ، عندما قررتُ فى النهاية ، سألتُ عنها . أجابونى بأن نتاشا قد تركت العمل ورحلت عن المدينة . واتضح أنها اشتغلت فى المستشفى لفترة قصيرة .

ماما ذهبت إلى مكان ما

فتح الطفل عينيه ، رأى ذبابة تزحف على السقف . طرف ، وراح ينظر في أى تجاه ستسير .

تحركت الذبابة فى تلك الناحية ، حيث كانت النافذة . أخذت تجرى دون توقف ، وقد فعلت ذلك بشكل غاية فى السرعة .

رأى الطفل أنها تجرى في طريق . فراح ينتظر : ألن تزحف واحدة أخرى خلفها ، حتى يتحقق ذلك الطريق فعليا ؟ ولكن لم يكن هناك ذباب أكثر من ذلك . كان في الحقيقة موجودا ، ولكنه لم يكن يجرى على السقف ، وسرعان ما فقد الطفل إهتمامه نحوه . اعتدل في الفراش ، وصاح :

– ماما ، أنا صحوت .

لم يجبه أحد .

– ماما – نادى – أنا جدع ، أنا صحوت .

هدوء .

انتظر الطفل ، ولكن الهدوء لم ينته .

عندئذ قفز من الفراش وركض حافيا إلى الغرفة الكبيرة . كانت خالية . راح ينظر بالتتابع إلى المقعد ، ثم إلى الطاولة ، وأرفف الكتب . ولكن بجوارها لم يكن هناك أحد . كانت تلك الأشياء موجودة هكذا على

نحو يشغل المكان فقط .

اندفع الطفل إلى المطبخ ، ثم إلى الحمام . لم يكن هناك أحد مختبأ أيضا .

- ماما ! - صاح الطفل .

ابتلع الهدوء صيحته وانطبق عليها . اندفع الطفل ثانية ، دون أن يصدق الهدوء ، إلى غرفته تاركا على الأرضية المدهونة آثار كعبيه وأصابعه التى مالبثت أن سكنت ، ثم ذابت واختفت .

- ماما - قال الطفل بقدر ما يستطيع من هدوء - أنا صحوت ، وأنت غير موجودة .

صَمْتَ .

- أنت غير موجود ، هه ؟ - سأل .

توترت ملامحه فى انتظار رد . أدار وجهه فى جميع الاتجاهات . لكن الرد لم يأت . فأجهش الطفل بالبكاء .

اتجه نحو الباب باكيا ، راح يجذبه ، لكن الباب لم يستجب له . عندئذ ضربه بقبضته ، ثم دفعه بقدمه الحافية . رَضّ قدمه ، وأخذ يبكى بصوت أعلى .

وقف فى وسط الغرفة . تساقطت دموع كبيرة دافئة من عينيه على الأرضية المدهونة ، ثم جلس دون أن يتوقف عن البكاء .

كان كل شئ من حوله يسمعه . وكان كل شئ صامتا . انتظر أن تتناهى إليه من خلف ظهره خطوات . ها هى ها هى ، ولكنها أبدا لم تأت . أما هو فلم يستطع قط أن يهدأ .

استمر ذلك طويلا . ولكن كم مر ، لم يعرف .

فى النهاية رقد على الأرض ، وراح يبكى مستلقيا . كان مجهدا لدرجة أنه لم يعد يشعر بنفسه . صار لايدرك أنه يبكى ، وكان هذا البكاء طبيعيا إلى ذلك الحد الذى يشبه فيه التنفس ، وقد صار لايتحكم فيه ، بل على العكس كان أقوى منه .

فجأة بدا للطفل أن أحدا ما فى الغرفة .

هب مسرعا على قدميه وأخذ يتطلع حوله . لم يفارقه ذلك الاحساس الذى أرغمه على النهوض . ركض الطفل إلى غرفة أخرى ، ثم إلى المطبخ والحمام . لكن لم يظهر هناك أحد .

عاد الطفل ناشجا ، وارى عينيه بقبضتيه ، ثم رفعهما وأخذ يتطلع حوله مرة ثانية . لم يتغير أى شئ فى الغرفة .المقعد خاليا ، الطاولة تقف وحيدة ، وعلى الأرفف ، كالعادة ، كانت الكتب ، ولكن كعوبها ذات الألوان المختلفة كانت تنظر إليه فى حزن وغموض . استغرق الطفل فى التفكير .

- لن أبكى أكثر من ذلك - قال لنفسه - ستأتى ماما ، وسأكون جدعا .

اتجه نحو الفراش ومسح وجهه المبلل بالبطانية . مر بعد ذلك ، فى هدوء وكأنه يتنزه ، على كل ما لديهم فى الشقة . لحظتئذ حضرت إلى ذهنه فكرة رائعة .

– ماما – قال بصوت غير عال – أريد القصرية .

لم يكن يريد القصرية ، ولكن ذلك هو الذى كان من الممكن أن يرغم أمه ، لو كانت بالبيت ، أن تركض إليه .

– ماما – كرر .

لم تكن بالبيت ... الآن فهم ذلك بشكل قاطع ونهائى .

يجب فعل شئ ما . «سألعب الآن ، لحين تأتى ماما» – قرر هو . ذهب إلى الركن حيث كانت جميع لعبه ، وتناول الأرنب . كان الأرنب محبوبه ، وكانت إحدى قدميه قد انخلعت . اقترح الأب عدة مرات على الطفل إعادة لصق هذه القدم ، ولكنه لم يوافق بأية حال من الأحوال . لم يكن هناك أى دافع لحب أرنب بقدمين . على هذا النحو ظل الأرنب بقدم واحدة ، أما الثانية فكانت ملقاة فى مكان ما هنا ، والآن هى كائنة بمفردها ، ومتحققة لذاتها .

– هيا نلعب يا أرنوبتى – اقترح الطفل .

وافق الأرنب صامتا .

– أنت مريض . قدمك توجعك ، وسوف أعالجك الآن .

وضع الطفلُ الأرنبَ على الفراش . تناول مسمارا وغرزه فى بطن الأرنب معطيا إياه حقنة .

كان الأرنب قد تعود على الحقن ، فلم يعد يبدي رد فعل عليها .

راح الطفل يفكر . ثم ، وكأنه ، تذكر شيئا ما ، ابتعد عن الفراش ودار ببصره فى الغرفة الكبيرة . لم يتغير أى شئ هناك ، والهدوء كما كان يلف ركنا وراء الآخر فى بطء .

عاد الطفل متنهدا إلى الفراش ونظر إلى الأرنب .

– لا ، ليس هكذا – قال الطفل – الآن سأكون أنا الأرنب ، وأنت الطفل الصغير . وسوف تعالجنى أنت .

أجلس الأرنب على المقعد واستلقى هو على الفراش ، ثم لوى قدمه تحته وأخذ يبكى . راح الأرنب ، أثناء جلوسه على المقعد ، ينظر إليه بعينيه الزرقاوين الكبيرتين فى دهشة .

– أنا يا أرنب ، توجعنى قدمى – شرح له الطفل .

صمت الأرنب .

– يا أرنب . – بعد ذلك سأل : أين ذهبت ماما ؟

لم يرد الأرنب .

– أنت لم تنم . أنت تعرف ، قل أين ذهبت ماما ؟ – طلب الطفل وهو يأخذ الأرنب بين يديه .

صمت الأرنب .

نسى الطفل أنه فى السابق كان دائما يرد بنفسه بدلا عن الأرنب مؤديا بذلك دورين فى آن واحد . والآن يطلب منه الرد فى جدية ، لقد نسى أن الأرنب مجرد لعبة بين اللعب – بين المكعبات التى لم ترص

فوق بعضها البعض إلا حينما كانوا يرصونها هم ، وبين العربات التى لم تسر إلا حينما كانوا يدفعونها هم ، وبين الوحوش التى لم تزأر وتتكلم إلا عندما كان يزأر أو يتكلم أحد ما بدلا عنها .

نسى هذا الطفل كل شئ .

– تكلم ، تكلم . – طلب هو .

أمعن الأرنب فى الصمت .

طوّح الطفل به على الأرض ، قفز مسرعا ودار حول نفسه . الطفل أيضا قفز ، دار حوله وهو يردد طوال الوقت : «تكلم ، تكلم ، تكلم» ، لكن الأرنب لم يرد ، ولم يستطع أن يهرب منه ، لأنه كان بقدم واحدة . فجأة أدرك الطفل ذلك ، فكف عنه . وقف وراح ينظر كيف يبكى الأرنب بدون صوت ووجهه مدفوس فى الأرض . وعندما سمع ذلك البكاء . انحنى على الأرنب ، بسط كفيه ، وقال فى ذنب :

– ماما ذهبت إلى مكان ما .

فجأة بدا للطفل أن أحدا ما يصعد السلم .

– ماما – صاح مندفعا نحو الباب ، كلنه تعثر فى المقعد وسقط . نهض وراح يرهف السمع . ولكن لم يكن هناك أحد بالباب . عندئذ انخرط الطفل مرة ثانية فى البكاء . كان يبكى من الألم والوحدة . لقد عرف الألم ، ومع الوحدة فهو يلتقى لأول مرة .

١٩٦٥ م

رودولفيـــو

كان اللقاء الأول فى الترام . لمستْ كتفه ، وعندما فتح عينيه ، بادرته مشيرة إلى النافذة :

– هذه محطتك .

كان الترام قد توقف ، فشق طريقة وسط الزحام وقفز على أثرها . أما هى فكانت فتاة صغيرة تماما ، فى الخامسة أو السادسة عشرة لا أكثر . خمن ذلك عندما رأى وجهها المستدير المتألق الذى أدارته نحوه فى انتظار كلمة شكر .

قال لها :

– شكرا ، كان من الممكن أن تفوتنى المحطة .

شعر بأن ذلك لم يكفها ، فأضاف :

– كان يوما محموما ، وقد تعبت جدا ، لكنك قدمت لى معروفا كبيرا ، لأننى أنتظر مكالمة تليفونية فى الثامنة .

بدتْ سعيدة بذلك . ركضا معا يعبران الطريق وهما يتلفتان نحو سيارة مسرعة . كان الثلج يتساقط ، ولاحظ أن مساحات الزجاج الأمامية كانت تعمل . عندما يسقط الثلج – هشا ناعما ، أزغبا ، كما لو كانوا يندفون هناك ، فى مكان ما ، فى الأعالى طيورا ثلجية عجيبة – لا تواتى الانسان رغبة فى العودة إلى البيت . «سوف أنتظر المكالمة ،

وسأخرج مرة ثانية» – قرر فى نفسه ، والتفت نحوها مفكرا فيما يمكن أن يقوله لها ، لأن الصمت أكثر من ذلك قد صار محرجا . لكنه لم يكن يعرف ما يمكنه أو ما لايمكنه أن يتحدث فيه معها ، وظل يفكر فى ذلك حتى قالت هى :

– أنا أعرفكم .

– معقول ! ولكن كيف ؟

– أنتم تسكنون فى المنزل رقم ١١٢ وأنا فى ١١٤ . وفى المتوسط ، نركب معا الترام مرتين فى الأسبوع ، إلا أنكم طبعا لا تلاحظوننى .

– عجيبة !

– وما العجيب هنا ؟ لاشئ أبدا . أنتم الكبار لاتعيرون اهتمامكم إلا إلى الكبار . إنكم جميعا فى منتهى الأنانية ، صح؟

حولت وجهها إلى اليمين وراحت ترنو إليه من اليسار ، من أسفل إلى أعلى . لكنه تنحنح فقط ، لم يرد عليها ، لأنه لم يكن يعرف حتى الآن كيف يمكنه التصرف معها ، وما يمكنه ، وما لايمكنه أن يقوله لها .

سارا صامتين بعض الوقت . كانت تنظر أمامها مباشرة ، وبينما هى على ذلك الحال ، صرخت وكأنما الأمر لا يعنيها :

– ومع ذلك ، فأنتم حتى الآن لم تذكروا لى اسمكم .

– وهل هذا ضرورى لك ؟

- نعم . وما الغريب فــى ذلك ؟ لســبب ما يعتقد البعـض أننــى لو رغبت فى معرفة اسم شخص ، فلابد أن تكون هناك نية غير سـليمة لدى .

- حسنا ، لقد فهمت . إذا كان ذلك ضرورى لك ، فاسمى رودولف.

- ماذا ؟

- رودولف .

- رودولف - وانفجرت ضاحكة .

- ولكن ما هذا ؟

أخذت تضحك بصوت أعلى بينما توقف وراح ينظر إليها .

- رو .. دولف - دوّرت شفتيها واســتغرقت ثانيــة فى الضحك - رو .. دولف . كنت أظن أنه لايمكن إطلاق مــثل هذا الاسم إلا على فيل فى حديقة الحيوانات .

- ماذا ؟!

- لا تغـضب - لامست كـمـه - لكن هذا شئ مـضـحك ، فـمـاذا بوسعى أن أفعل إذا كان ذلك مثيراً فعلا للضحك .

قال فى ضيق :

- صبية صغيرة فعلا .

– طبعا صغيرة . أما أنت فرجل كبير .

– كم عمرِك ؟

– ستة عشرة .

– وأنا ثمانية وعشرون .

– وهذا ما أقوله : أنت كبير واسمك رودولف .

انفجرت مرة أخرى بالضحك وراحت ترمقه فى مرح من اليسار ، من أسفل إلى أعلى . فسألها :

– وما اسمك أنت ؟

– أنا ؟ من المستحيل أن تحزر .

– بالفعل لن أحزر .

– ولو حاولت ، فلن يمكنك . اسمى يو .

– ماذا ؟

– يو .

لا أفهم أى شئ .

– يو . يعنى القائم بالأعمال . يو .

حانت ، فى الحال ، لحظة العقاب ، ودون أن يتمالك نفسه ، راح يقهقه مؤرجحا جسده إلى الأمام وإلى الخلف مثل الجرس ، صار مجرد

التطلع إليها كافيا لاثارة ضحكه أكثر فأكثر ، وأخذ شئ ما يقرقر فى حلقه :

– يـ .. و . يـ .. و .

ظلت تنتظر متلفتة حولها حتى هدأ قليلا ، ثم قالت فى ضيق :

– شئ مضحك ، هه ؟ ليس هناك ما يضحك . يو ، اسم عادى مثل كل الأسماء .

قال مائلا نحوها :

– اعذرينى . لكن الأمر بالفعل يثير ضحكى . عموما فقد تعادلنا الآن ، صح ؟

أومأت برأسها موافقة .

كان بيتها فى البداية ، ويليه بيته مباشرة . وما أن توقفا أمام المدخل بادرته متسائلة :

– ما رقم تليفونك ؟

– هذا ليس ضرورى .

– خائف ؟

– المسألة ليست كذلك .

– الكبار يخافون كل شئ فى الدنيا .

- هذا صحيح - أجابها موافقا .

خلعت قفازها . مدت كفها الصغيرة إليه ، وكانت باردة وهادئة . صافحها قائلا :

- هه ، على البيت بسرعة يا يو . وضحك مرة ثانية .

توقفت عند الباب وسألته :

- والآن ستعرفني عندما نلتقي في الترام ؟

- لم يبق إلا ذلك ، طبعا سأعرفك .

- إذن إلى اللقاء في الترام .... - ودّعته رافعة يدها إلى أعلى .

فأضاف :

- .... الذي سنذهب فيه معا .

* * *

بعد يومين سافر إلى الشمال في مهمة لم يعد منها إلا بعد مضي أسبوعين . كان قد بدأ يُحَس هنا ، في المدينة ، شذا الربيع النفاذ الذي أقبل نافضا عنها غموض الشتاء وقتامته كما ينفض الغبار . فبعد ضباب الشمال بدا كل شيء هنا ، حتى الترام ، أكثر وضوحا واشراقا ، وترجيعا للصدى .

فى البيت ، كان أول ما قالته له زوجته تقريبا :

- هناك فتاة ما تتصل بك يوميا .

- أى فتاة ؟ - سألها فى إجهاد ولا مبالاة .

- لا أعرف .. ظننتك تعرفها .

- لا .

- لقد أزعجتنى .

- شئ عجيب - وابتسم دون رغبة .

بينما كان فى الحمّام رن جرس التليفون . تناهى إلى سمعه ، من خلال الباب ، رد زوجته : عاد ، يستحم ، بعد قليل من فضلك .

كان قد بدأ يتهيأ للنوم عندما رن جرس التليفون مرة ثانية .

- نعم ...

- أهلا يا روديك ، أنت وصلت ! - تردد فى السماعة صوت أحد ما .

أجاب فى حذر :

- أهلا ، من يتكلم ؟

- ألم تعرف ؟ آه منك يا روديك .. هذه أنا .. يو .

- يو ! - تذكر على الفور واستغرق فى نوبة ضحك رغم إرادته - أهلا يا يو . يبدو أنك قد انتقيت لى اسما أكثر ملائمة .

– نعم . هل يعجبك ؟

– كانوا ينادونني كذلك عندما كنت في مثل سنك .

– لا تتعجرف أرجوك .

– لا ، لا طبعا ..

ران عليهما الصمت ، لكنه لم يتماسك ، فسألها :

– ولكن ما الأمر يا يو ؟

– روديك ، من هذه ؟ زوجتك ؟

– نعم .

– لماذا لم تقل لي أنك متزوج ؟

– سامحيني – أجابها مازحا – لم أكن أعرف أن ذلك أمر هام لهذه الدرجة .

– بالطبع هام . وأنت ، هل تحبها ؟

– نعم . يو ، اسمعي من فضلك : لا تتصلي بي بعد الآن .

– يا خـ .. وّ .. ا .. ف – قالتها ملحنة – روديك لاتفهمني خطأ ، عش معها إذا أردت ، فأنا لا أعارض . ولكن ما تقوله الآن لايجوز أيضا : لاتتصلي . فلربما احتجت إليك في أمر ما .

- فى أى أمر ؟ - سألها ضاحكا .

- هه ، كيف فى أى أمر ؟ يعنى .. يعنى ، مثلا - وجدت ردا سريعا - الماء الذى يُضَخ من خزان إلى خزان آخر ، لايوجد عندى حل لهذه المسألة ، وعندئذ يمكننى الاتصال بك ، أليس كذلك ؟

- لا أعرف .

- طبعا ممكن . لاتخف منها يا روديك ، فنحن اثنان ، وهى واحدة.

- مَنْ ؟ لم يفهم .

- مع السلامة يا يو .

- أنت متعب ، أليس كذلك ؟

- نعم .

- هه ، حسنا . إذن صافحنى واذهب للنوم .

- ها أنذا أصافحك .

- أما هى ، فلا تتحدث حتى معها .

قال ضاحكا :

- حسنا ، لن أفعل .

التفت إلى زوجته ضاحكا ، ثم قال :

- إنها يو . هكذا هو اسمها ، مضحك أليس كذلك ؟

– نعم – أجابت فى انتظار وترقب .

– لم تستطع حل مسألة خزانّى الماء ، فهى تدرس فى الصف السابع أو الثامن ، لا أذكر .

– وهل ساعدتها فى حل المسألة .

– لا ، فقد نسيت كل شئ ، إن مسائل الخزانات هذه صعبة فعلا .

* * *

مع أول خيوط ضوء الصباح ، رن جرس التليفون . ولكن أى ضوء كان هناك – فى الحقيقة لم يكن هناك أى ضوء ، كانت المدينة كلها ماتزال مستغرقة فى نوم عميق . نهض رودولف ، ألقى نظرة على البيت المقابل – لم تكن هناك ولا حتى نافذة واحدة مُضَاءة . كانت ، فقط ، مداخل البيوت الشبيهة بأزرار آلة الهارمونيكا التى يلمع معدنها ، مَضَاءة في أربعة صفوف منتظمة . واصل التليفون رنينه دون انقطاع . اتجه إلى التليفون ناظرا إلى الساعة ، فوجدها الخامسة والنصف . قال فى ضيق وتبرم :

– نعم .

– روديك ... روديك ..

احتدم غيظه :

- يو ، ماذا يعنى ذلك بحق الشيطان ؟

قاطعته :

- روديك ، اسمع ، لاتغضب فأنت لاتعرف بعد ماذا حدث .

سألها مهدئا من نفسه :

- وماذا حدث ؟

- روديك ، أنت بعد الآن لست روديك . أنت رودولفيو - أعلنتْ بمهابة - رودولف - يو ! عظمة أليس كذلك ؟ لقد اخترعته لتوى. رودولف ويو - معا يعطيان رودولفيو ، كما عند الايطاليين . هه . هيا كرر .

قال بصوت يمتزج فيه اليأس بالغضب :

- رودولفيو .

- تمام . الآن أصبح لدينا اسم واحد - نحن غير منفصلين ، مثل روميو وجولييت . أنت رودولفيو ، وأنا رودولفيو .

قال مستعيدا هدوءه :

- اسمعى ، ألا يمكنك أن تختارى فى المرة القادمة وقتا أكثر ملائمة عندما تودين إطلاق اسم جديد علىّ ؟

- إلى أى مدى لاتدرك أننى لم أستطع الانتظار . ثم أن موعد استيقاظك قد حان . تذكّر يا رودولفيو : فى السابعة والنصف سأكون فى انتظارك على محطة الترام .

– لن أذهب اليوم فى الترام .

– لماذا ؟

– عندى إجازة .

– أية إجازة ؟

– إجازة – يْعنى عطلة غير دورية ، أى أننى لن أذهب إلى الشغل .

قالت :

– و.. ولكن ماذا بشأنى ؟

– لا أعرف . اذهبى إلى المدرسة ، وخلاص .

– ولكن هل عند زوجتك إجازة أيضا ؟

– لا .

– هه ، معقول جدا ، ولكن لاتنسْ : اسمنا الآن رودولفيو .

– أنا فى غاية السعادة .

أعاد السماعة إلى مكانها . ذهب لعمل الشاى وهو يبعث بها إلى الشيطان ، فعلى أية حال لن يتمكن من النوم الآن وقد أضيئت ثلاث نوافذ فى البيت المقابل .

* * *

دق الباب وقت الظهيرة ، وكان فى هذا الوقت تحديدا يمسح الشقة . فتح الباب وبيده الخرقة المبللة التى لسبب ما لم يفطن إلى تركها فى أى مكان فى طريقة . كانت هى .

– أهلا رودولفيو .

رد مندهشا :

– أنتِ ! ماذا حدث ؟

– أخذت إجازة أيضا .

كان وجهها مثل وجه قديسة – لم يكن به أى أثر لما يسمى بتأنيب الضمير . أما هو فقد أجاب بخشونة :

– هكذا إذن ! معنى ذلك أنك تتسكعين . هه ، ادخلى طالما أتيت . سأنتهى حالا .

جلستْ على مقعد بجوار النافذة دون أن تخلع معطفها ، وراحت تتابع كيف يحرك الخرقة منحنيا على أرضية الشقة . ثم أعلنت بعد دقيقة واحدة :

– رودولفيو ، أعتقد أنك غير سعيد فى حياتك الأسرية .

اعتدل متسائلا :

– ومن أين أتيت بذلك ؟

- هذا يمكن رؤيته ببساطة . فأنت ، مثلا ، تمسح الأرض دون أى استمتاع ، وهذا ليس حال السعداء .

- دعك من الأوهام - قال مبتسما .

- أيمكنك أن تقول بأنك سعيد ؟

- لن أقول شيئا .

- هذا هو الأمر .

- من الأفضل أن تخلعى معطفك .

- أنا خائفة منك - قالت متطلعة من النافذة .

- ماذا ، ماذا ؟

- أنت فى النهاية رجل .

آه ، هكذا إذن - قال مستغرقا فى الضحك - وكيف واتتك الجرأة على المجئ إلى هنا ؟

- وماذا فى الأمر ، أنا وأنت رودولفيو .

- نعم ، نعم ، أنا أنسى دائما ذلك . وبالطبع فهذا يلقى على كاهلى بالتزامات محددة .

- طبعا .

استغرقت فى الصمت ، وظلت جالسة فى هدوء بينما كان يقرقع بالدلو فى المطبخ . ولكنه عندما خرج إليها ، وجدها قد علّقت معطفها

على ظهر المقعد ، ولاحت على وجهها إمارات التفكير والحزن . اعترفت له فجأة :

– رودولفيو ، لقد بكيت اليوم .

– لماذا ، يا يو ؟

– لست يو ، وإنما رودولفيو .

– لماذا ، يا رودولفيو ؟

– بسبب أختى الكبرى التى تشاجرت معى عندما قررتُ الغياب عن المدرسة .

– أعتقد أنها على حق .

– لا ، يا رودولفيو ، ليست على حق – قالت ذلك ، ونهضت من مقعدها لتقف بجوار النافذة – يمكن عمل ذلك ولو مرة واحدة ، فإلى أية درجة لا تفهموننى ! لو تدرك الآن مدى سعادتى وأنا أتحدث معك ...

اعتراها الصمت ثانية بينما راح ينظر إليها في تمعن وقد انتصب نهداها فى توتر من خلال فتحة الفستان كعشين صغيرين بنتهما طيور شاردة لتسكن فيهما صغارها . لاحظ أن وجهها سوف يطول ويتشكل بعد عام ، وسيصبح جميلا . شعر بالأسف من فكرة أنه مع الزمن سيكون لها فتاها . اقترب منها ، ربت على كتفها وقال مبتسما :

– سيكون كل شئ على ما يرام .

- حقا ، يا رودولفيو ؟

- طبعا .

- أنا أصدّقك .

- نعم .

هَمَّ بالابتعاد عنها ، ولكنها دعته قائله :

- لماذا تزوجت هكذا مبكرا ؟ إذ إنه لم يكن سوى سنتين وكنت قد تزوجتك .

- لا تتعجلى ، فعلى أية حال سوف تتزوجين من أى شاب رائع .

- كنت أتمنى أن يكون أنت .

- سيكون أفضل منى .

مطت صوتها قائلة دون اقتناع :

- هه ، أتتصور أن هناك من هو أفضل منك ؟

- هناك من هو أفضل بألف مرة .

قالت متنهدة بعدم خبرة :

- ولكنه لن يكون أنت .

قال مقترحا :

- من الأفضل أن نشرب شايا .

- هيا .

ذهب إلى المطبخ ووضع الابريق على النار .

- رودولفيو ! - كانت تقف بالقرب من أرفف الكتب - لدينا معا أجمل اسم ، انظر ، حتى عند الكتاب لايوجد أجمل منه - صمتت لوهلة - من الممكن فقط أن يكون لدى هذا اكـ .. زو .. بيـ .. رى . أليس كذلك؟

- نعم . ألم تقرأيه ؟

- لا .

- خذيه إذن ، ولكن من دون غياب عن المدرسة بعد اليوم ، اتفقنا ؟

- اتفقنا .

شرعت فى ارتداء معطفها . قال متذكرا فجأة :

- والشاى ؟

- رودولفيو ، من الأفضل أن أنصرف ، حسنا ؟ - وكسى الحزن ابتسامتها - فقط لا تخبر زوجتك بأننى كنتُ هنا ، حسنا يا رودولفيو ؟

وعدها قائلا :

- حسنا .

عندما خرجت شعر بخواء ، وتملكه شعور دفين بكآبة غامضة ، غير مفهومة رغم وجودها ، فارتدى ثيابه وخرج .

* * *

حل الربيع ، فجأة ، دون سابق إنذار تقريبا . خلال عدة أيام صار الناس أكثر لطفا وطيبة . بدت لهم تلك الأيام القليلة مثل فترة انتقال من زمن التوقع إلى زمن التحقق والاكتمال حيث الأحلام الربيعية قد راحت تمنيهم ، بمهارة عرافة حاذقة ، بالسعادة والحب . فى مساء أحد تلك الأيام ، عندما كان رودولف عائدا إلى منزله ، استوقفته امرأة متوسطة العمر ، ابتدرته قائلة :

– أنا أم يو . معذرة ، أعتقد أن اسمكم رودولفيو .

وافقها مبتسما :

– نعم .

– أنا أعرفكم من خلال ابنتى . إنها تتحدث عنكم كثيرا فى الفترة الأخيرة ، ولكننى ...

ترددت فى حديثها ، وارتبكت . أدرك أنها تعانى صعوبة فى الاستفسار عما يجب أن تستفسر عنه كأم . فقال لها :

– لا تقلقوا ، إننى مرتبط مع يو بعلاقة صداقة متينة وطيبة ، وليس هناك ما يمكن أن ينجم عن ذلك .

– طبعا ، طبعا – أسرعت تقول فى ارتباك مكررة – ولكن يو فتاة طائشة ، لا تطيعنا إطلاقا . لو كان بامكانكم التأثير عليها ... فأنا خائفة ، وكما تعرفون فهى فى سن يجب فيه الخوف عليها ،

فمن الممكن أن ترتكب حماقة ما . أن ما يفزعنى حقا أنه ليس لديها صديقات من صفها، ولا حتى من جيلها عموما .

- هذا شئ سيئ .

- أدرك ذلك . ويبدو لى أن لكم تأثير عليها ...

وعدها قائلا :

- سأتحدث معها ، مع أننى أعتقد أن يو فتاة جيدة ، وليس هناك أى داعٍ للقلق عليها بهذا الشكل .

- لا أدرى .

- عموما إلى اللقاء . سوف أتحدث معها ، وسيكون كل شئ على ما يرام .

* * *

قرر الاتصال بها فى الحال ، وعدم تأجيل ذلك خاصة وأن زوجته لم تكن فى البيت .

- رودولفيو ! - كان واضح أنها سعيدة تماما باتصاله - كم أنت رائع باتصالك هذا . رودولفيو ، لقد بكيتُ مرة أخرى .

- لكن لايجب أن تبكى هكذا كثيرا .

– كل ذلك بسبب «الأمير الصغير» ، فقد شعرت بالحزن عليه .
أحقا كان يعيش معنا على الأرض ؟

– نعم ، على ما أعتقد .

– وأنا أيضا أعتقد ذلك ، لكننا لم نكن ندرى . أليس ذلك فظيعا ؟! ولو لم يكن اكزوبيرى لما عرفنا أبدا . ليس عبثا أن لديه هذا الاسم الجميل مثل اسمنا .

– طبعا .

– هناك أيضا ما أفكر فيه : رائع أنه قد ظل كما هو «أمير صغير»، فكم كان من المرعب إذا تحول بعد ذلك فجأة إلى إنسان عادى؟ فما أكثر ما لدينا من هؤلاء العاديين .

– لا أدرى .

– أما أنا فأدرى . هذا أكيد .

– و« أرض البشر» ، هل قرأتيها ؟

– قرأت كل شئ يا رودولفيو . أعتقد أن اكزوبيرى كاتب حكيم للغاية ، حتى أنه من المستحيل تحديد درجة حكمته وطيبته . أتذكر «بارك» حين يعتقونه ، ويمنحونه مالا فينفقه على شراء أحذية للأطفال ويبقى خالى الوفاض .

– نعم ، وهل تذكرين بونّافوس الذى كان يسطو على العرب وينهبهم ، وكانوا يمقتونه ويحبونه فى آن واحد ؟

– لأن الصحراء بدونه كانت ستبدو لهم وكأنها عادية تماما ، إلا أنه حولها إلى صحراء خطرة ورمانتيكية .

– عفارم عليكِ إن كنت فعلا تفهمين كل ذلك .

– رودولفيو ... ، – ثم صمتتْ .

– إننى أسمعك – ذكّرها قائلا . ولكنها ظلت صامتة . فقال وقد اعتوره القلق لسبب ما :

– رودولفيو ، تعالِ إلىّ الآن ، أنا بمفردى .

* * *

اتجهت نحو المقعد متلفتة حولها ، ثم جلست . سألها :

– لماذا أنت متوجسة هكذا ؟

– هل هى غير موجودة حقا ؟

– زوجتى ؟

– طبعا .

– ليست موجودة فعلا .

– حيزبون كئيبة .

– ماذا ؟

– حيزبون كئيبة ، هذا ما أقوله !

– من أين أتيت بهذا الكلام ؟

– من اللغة الروسية العظيمة . لم أجد هناك ما يناسبها أكثر من ذلك .

– يو ، هذا لايجوز .

– لست يو ، وإنما رودولفيو .

– آه ، نعم .

– لقد اتصلتُ منذ فترة فرفعت هى السماعة . أتعرف ماذا قالت لى؟ لقد قالت : إذا كنت تتصلين بخصوص مسألة الخزانات ، فمن الأفضل أن تتوجهى إلى مُدَرسك . يبدو لى أنها تغار عليك منى .

– لا أعتقد ذلك .

– رودولفيو ، ألستُ أنا أفضل منها ؟ صحيح أننى لم أكتمل كما ينبغى ، لكن المستقبل أمامى .

أومأ برأسه مبتسما . فقالت :

– ها أنت توافقنى . أعتقد أنه قد آن الأوان لكى تطلّقها .

قال مقاطعا إياها :

– دعك من هذه الحماقات ، يبدو أنني قد سمحت لك بتجاوز الحدود .

– بدافع الحب ، أليس كذلك ؟

– لا . بدافع الصداقة .

صمتتْ مقطبة ، وكان من الواضح أن ذلك لم يكن إلا لفترة قصيرة ، فسألت :

– ما اسمها ؟

– مَنْ ؟ زوجتى ؟

– طبعا .

– كلافا .

– لا بأس ، اسم عظيم .

– كفى ! – قال بغضب .

نهضتْ . أغمضتْ عينيها للحظة ، وفجأة قالت :

– رودولفيو ، أنا مجنونة ، سامحنى ، لم أكن أود ...

قال محذرا :

– كل شئ إلا البكاء .

– لن أبكى .

ابتعدتْ قليلا ، استدارت نحو النافذة ، ثم قالت :

– رودولفيو ، تعال لنتفق هكذا : أنا لم أكن عندك اليوم ، ولم أقل أى شئ من هذا ، حسنا ؟

– حسنا .

– الآن ، إلى اللقاء ، وأعتبر أننى قلتها لك بالتليفون .

– حسنا .

انصرفتْ . وبعد خمس دقائق رن جرس التليفون .

– إلى اللقاء يا رودولفيو .

– إلى اللقاء .

انتظر أن تضيف شيئا ، لكنها وضعت السماعة .

* * *

بعد ذلك لم تتصل به . مرت فترة طويلة دون أن يراها ، فقد سافر مرة ثانية ولم يعد إلا فى شهر مايو بعد أن تحوّل الميزان الشمسى ورجحت كفة الصيف بينما أصبح الربيع فى خبر كان . فى هذا الوقت بالذات ، كانت لديه أعمال كثيرة ، وكلما تذكرها ، كان يؤجل الاتصال بها : سوف أتصل بها غداً ، بعد غد ، وبذلك لم يتصل بها نهائيا . وفى نهاية الأمر التقيا مصادفة فى الترام . رآها من بعيد ، شق طريقة إليها

بسرعة ونفاذ صبر خشية أن تنزل ، إذ كان بامكانها النزول فى المحطة التالية فى حين لم يكن لديه ، على الأرجح ، الاستعداد الكافى للقفز خلفها . ولكنها لم تغادر الترام . لحظتئذ ضبط نفسه متلبساً بحالة من السعادة الغامرة ربما أكثر مما تمليه علاقة صداقة كهذه .

– أهلا يا يو – قال رابتا على كتفها .

التفتت مجفلة ، وعندما رأته غمرتها فرحة شديدة وهزت رأسها ببطء ، ثم قالت مصححة كما فى السابق :

– لست يو ، وإنما رودولفيو . أننا ما زلنا بعد صديقين ، أليس كذلك ؟

– طبعا ، يا رودولفيو .

– هل سافرت ؟

– نعم .

– اتصلتُ بك مرة ، ولم أجدك .

– أنا موجود هنا طوال هذا الأسبوع .

كان الترام مزدحماً . راح الركاب يدفعونهما باستمرار ، فاضطرا إلى الوقوف متقاربين تماما حتى أن رأسها كان يلامس ذقنه ، وكلما رفعت وجهها لتكلمه ، مال برأسه ليسمعها مما اضطره إلى تحويل عينيه بعيداً لشدة تقاربهما . سألته :

– رودولفيو ، هل تريد أن أقول لك شيئا ما ؟

– طبعا أريد .

رفعتْ وجهها ثانية حتى كاد يلامس وجهه ، لدرجة تمنى معها أن يغمض عينيه .

– إننى أشعر دوما بفراغ من دونك يا رودولفيو .

– حمقاء أنت – قال لها .

تنهدت قائلة :

– أعرف ، لكننى لا أشعر برغبة فى مصاحبة الأولاد ، لست فى حاجة إليهم ولو لقرن كامل .

توقف الترام ونزلا ، فسألته :

– هل ستذهب إلى هذه الـ«كلافا» ؟

– لا . تعالِ نتمشى .

اتجها صوب النهر ، هناك حيث يبدأ الخلاء . انحرفا عن الطريق متقافزين على النتوءات الصغيرة وأكوام القمامة . أمسك بيدها مساعدا إياها على القفز فوق الحواجز الصغيرة . أما هى ، فكانت صامتة ، ولم يكن الصمت من طبعها ، لكنها ظلت صامتة بينما انتابه شعور بأنها مثله مفعمة أيضا بتوتر قوى جارف لايمكن التحكم فيه . خرجا إلى الضفة المنحدرة وأيديهما ما تزال متشابكة ، راحا ينظران نحو النهر ،

صوب مكان ما خلفه ، ثم عادا يرنوان إليه . قالت غير قادرة على التماسك :

- رودولفيو ، حتى الآن لم يقبّلنى أحد ، ولا مرة واحدة .

مال نحوها وقبّلها من خدها .

- فى الشفتين – طلبت منه .

قال متلعثما فى ألم :

- القبلة فى الشفتين للأشخاص الحميمين فقط .

- وأنا ؟

انتفضتْ ، فأصابة الرعب . فى اللحظة التالية أدرك فجأة – لم يشعر ، بل أدرك تحديدا – أنها قد صفعته صفعة حقيقية ، واندفعت راكضة إلى هناك مرة أخرى ، إلى الخلاء عبر النتوءات والأكوام ، عبر التوتر والتوقع . أما هو فقد توّقف وراح ينظر كيف تركض ، دون أن يجرؤ حتى على مناداتها ، ودون أن يقدر على الاندفاع خلفها واللحاق بها . ظل واقفا لفترة طويلة وقد تملكه شعور دفين بالخواء وبغض النفس.

* * *

حـدث ذلك يوم السـبت ، وفى يوم الأحـد ، اتصلت به أمـهـا فى الصباح الباكر .

– رودولفيو ، سامحونى من فضلكم ، ربما أيقظتكم ...

كان صوتها متقطعا وواجفا ، فقال لها :

– أنا أسمعك .

– رودولفيو ، يو لم تبت الليلة فى المنزل .

كان عليه أن يجيب بشئ ما ، لكنه ظل صامتا .

– نحن فى حالة يأس ، لانعرف مـاذا نفعل ، وكيف نتصرف ، إنها المرة الأولى ...

رد أخيرا :

– عليكم أن تهـدأوا من أنفـسكم أولا ، ربما تكون قـد باتت عند صديقتها .

– لا أدرى .

– على الأرجح أن هذا مـا حدث فعلا . إذا لم تعد بعد سـاعتين ، فـسوف نذهب للبحث عنهـا . فـقط عليكم أن تهـدأوا ، وبعـد ساعتين سأتصل بكم .

وضع السماعة . راح يفكر ، ثم قال فى نفسه : أنت أيضا عليك أن تهدأ . ربما أمضت الليلة عند صديقة لها . لكنه لم يستطع أن يهدأ ،

على العكس فقد شعر ببداية هزة عصبية . ولكى يتفاداها ، مضى إلى غرفة الكراكيب ، راح يبحث مصفرا فى كتبه المدرسية القديمة . كان كتاب الجبر تائها فى مكان ما بين الأشياء ، فانشغل فى البحث قليلا عنه .

كان التليفون المتوارى ، هناك ، صامتا . أغلق رودولف باب المطبخ على نفسه ، وراح يتصفح الكتاب . ها هى : إذا قمنا بضخ الماء من خزان إلى خزان آخر لمدة ساعتين .... لحظتئذ رن جرس التليفون .

- لقد عادت - وانخرطت الأم التى لم تستطع تمالك نفسها فى البكاء ، فوقف يستمع .

- رودولفيو ، تعال إلينا من فضلك - انفجرت ثانية فى البكاء ، ثم أضافت - لقد حدث لها شئ ما .

* * *

دون استئذان خلع معطف المطر . أشارت الأم صامتة ، بيدها ، إلى باب غرفتها . كانت يو قابعة فى الفراش مُكَوّمَة قدميها تحتها وقد أرسلت ببصرها عبر النافذة مباشرة ، ورعدة خفيفة تتملك جسدها . نادى عليها :

- رودولفيو .

التفتت إليه ولم تتفوه بشئ .

– رودولفيو !

ردت وعلى ملامحها الملتوية إمارات التقزز :

– كفى ، أى رودولفيو أنت ، أنك رودلف عادى ، مجرد رودلف عادى تماما ، فاهم ؟

كانت الصدمة قاسية لدرجة أنه أحس بالألم يتملك من جسده كله ، لكنه أرغم نفسه على البقاء . اقترب من النافذة ، أتكأ على حافتها بينما كانت هى تهز جذعها إلى الأمام وإلى الخلف محدقة أمامها فى خط مستقيم يمر بجواره ، ولوالب السرير تُزَيّق بهدوء من تحتها .

قال لها موافقا :

– حسنا ، لكن قولى لى أين كنت ؟

أجابت فى ضجر دون أن تلتفت نحوه :

– اذهب إلى الشيطان .

هز رأسه ، نزع معطفه من فوق الشماعة ، ودون أن يرد على صمت أمها المتسائل هبط على السلم ، وذهب إلى الشيطان . كان يوم الأحد قد بدأ لتوه ، المارة قليلون فى الشارع ، فلم يوقفه أحد . اجتاز الخلاء ، هبط إلى ضفة النهر ، وفجأة ألح عليه سؤال : إلى أين بعد ذلك؟

لقـــــاء

- معقول ! معقول أننا التقينا ! من كان يمكنه أن يتصور !

أخذت أنا تكرر ، بينما راح نيكولا يضغط على كتفيها مبتسما .

قبل ذلك طالع كل منهما الآخر طويلا ، وبعد أن نفذ صبر نيكولا اقترب منها ، وسألها : «ألستم هى ؟» - فردت : «هى ؟ ومن أين تعرفوننى؟» - «إننى هو ، إذا كنتم تذكروننى ، فما أكثر ما مضى من سنوات» . تذكرتْ فجأة : «يااا .. ه ، لقد عرفتكم . سألتُ ، وعلى الفور عرفتُ حتى قبل أن تردوا» . مدتْ إليه يدها ، وقالت فى دهشة : «معقول ! معقول أننا التقينا ما أكثر ما يوجد فى هذه الحياة ! من كان يمكنه أن يتصور !»

رن الجرس مؤذنا لاستدعاء الناس إلى القاعة ، لكنة كان مجرد رنين أوّلى ، ويبدو أنهما لم يسمعاه . سألها : «أما زلتم تعيشون هناك حتى الآن ؟» - أجابت : «فى نفس المكان ، لم نرحل إلى أية جهة . والآن قد فات أوان الرحيل . ولكن أين تعيشون أنتم ؟» - «هناك أيضا ، فى نفس المكان الذى ذهبتُ إليه بعد عودتى من الحرب ، وها قد مر أكثر من عشرين عاماً فقالت : «لم أكن أعرف . نعيش فى أقليم واحد ولا أعرف» .

رن الجرس للمرة الثانية ، فالتفتت مبتسمة نحو القاعة ، إذ كان من المفروض الآن التوجه إليها . بعد فترة الاستراحة ، أصبح عدد المقاعد الخالية بالقاعة أكثر ، فجلسا فى الصف الأخير بحيث يمكنهما

التحدث . على الفور بدأ مرة أخرى إلقاء الأبحاث والخطب – كان ذلك هو المؤتمر الاقليمى لطلائع الزراعيين الذى حضر إليه من أحد أطراف الأقليم بينما جاءت هى من طرف آخر . بدون ذلك ، بدون هذا المؤتمر ، لم يكن ليكتب لهما أن يلتقيا . راحا يستمعان إلى المتحدث ، لكن الإنصات إليه كان مملا ، فأخذا ينظران فقط كيف يتحدث . بعدها لم يطق نيكولاى صبرا ، فنظر من فوق كتفه إلى أنّا ، إلى وجهها ، وعندما شعرت بنظراته ، التفتت إليه وابتسمت فى حرص شديد وهى على استعداد فى أية لحظة لاضفاء ابتسامة على وجهها ، أو بالأحرى مشروع ابتسامة . – يدمدم ويهمهم ، بأى شئ يهمهم ! غير مفهوم – قال نيكولاى ذلك من أجل أن يقول أى شئ فقط .

ردت موافقة :

– نعم . ليس هناك مالم يقولونه بعد ، وكل بقدر صوته . ها هو رئيسنا قد بدأ يتحدث ، وعليك أردت أم لم ترد أن تستمع ، مثل الرعد .

انحنيا وراحا يضحكان بخفوت ، ثم سألها :

– هل عندكم مزرعة تعاونية كاملة ؟

– مزرعة تعاونية . منذ حوالى ثلاث سنوات قالوا بأنهم سيقيمون مزرعة حكومية ، وبعد ذلك يبدو أنهم قد رجعوا فى كلامهم ، ولَفَّهُم الصمت .

– وأنتِ ، أين تعملين ؟ – قال مخاطباً إياها بـ«أنت» .

– حلابة . منذ زمن بعيد ، قريباً سيكون لى خمسة عشر عاماً .

علا الضجيج فى القاعة ، وأصبح صوت المتحدث غير مسموع . تغضن وجه رئيس الجلسة القابع خلف منصة الرئاسة ، تناول الجرس وأخذ يدقه . ران الصمت على القاعة . راحوا ينظرون اليه وهو يضع الجرس على المنصة ، ويشعر بمئات العيون المسلطة عليه وهو يتحدث إلى جاره بشئ ما ، شئ ما غير ضرورى خطر على ذهنه لأول وهلة .

سأل نيكولاى :

– هل نزلتِ فى الفندق ؟

همست أنّا ملقية ببصرها على هيئة الرئاسة :

– لا . عندى عمة تعيش هنا ، وقد نزلت عندها .

قال ضاحكاً :

– لاتخافى .

ردت أنّا فى تململ :

– أنهم يتشاتمون . ولكن أنت ، أين تنزل ، فى الفندق ؟

– نعم ، هناك .

ران عليهما الصمت ، وراحا ينظران خلسة إلى بعضهما البعض . مال نيكولاى عليها مقترحا : – تعال نفعل كالآتى ، سوف تنتهى الجلسة الآن ، إذن فلنذهب عندى .

– ولكن لماذا ؟ – سألت فى حذر .

– لنتحدث ، كيف لماذا ؟ فكم سنة لم ير أحدنا الآخر ! سنجلس ونتحدث ، حتى لا يضايقنا أحد .

– لا أدرى .

– وما وجه الدراية هنا ؟

– لا أدرى ماذا أفعل .

قال فى دهشة :

– لقد صرتِ متوحشة على نحو ما ! مثل الفتاة الصغيرة . إننى أذكر أنك لم تكونى خوافة فى شبابك .

قالت :

– لا تثُر ، سأذهب وليكن ما يكون ، فأنت لن تأكلنى .

– مفهوم ، لن آكلكِ .

أثناء الاستراحة ، أرتديا معطفيهما وخرجا . كانت غبشة الشتاء قد بدأت لتوها فى الشارع ، لكن الجو كان دافئا . كان هذا الدفء الذى حل منذ عدة ساعات ، ريثما جلسا فى المؤتمر ، يبدو مثيراً للدهشة . لم يصدقا أنهما فى شهر ديسمبر ، نهاية ديسمبر ، منتصف الشتاء . الناس تروح وتجئ ، على وتيرة واحدة ، فى بطء للتخلص من الصقيع ، ومن عجلة الشتاء الدائمة . وعلى ضوء النيران الباهت ، فى العتمة ،

تعلقت في الهواء ندف ثلجية رقيقة مشعثة بقيت بعد سقوط الثلج منذ قليل ، لم يكن يُرَى هل بلغت الأرض أم لا . وكانت العربات تسير بدون ضجيج تقريبا ، الأمر الذى جعلها تبدو وكأنها تسير فى بطء وحذر .

جلس كل من نيكولاى وأنّا فى الأتوبيس ، ويمكن القول أنهما لم يجلسا ، وإنما وقفا : لم تكن هناك أماكن خالية ، فكان عليهما الوقوف . انحنت أنّا قليـلا وراحت تطالع الشـارع الذى كـان يمر إلى الخلف بسرعة، وقد بدا من هنا ، من الأتوبيس ، لامعا ومنتعشا .

- إجلسى - قال نيكولاى دافعا أنّا برفق نحو المقعد الذى قامت من عليه امرأة . لكنها رفضت قائلة :

- لا داعى ، سأظل واقفة . أنت قلت أن المكان ليس بعيدا ، إذن فمن الممكن الوقوف .

- إجلسى ، إجلسى ولا تتظاهرى بأنكِ شابة .

جلست ، ثم التفتت اليه مكركرة بالضحك ، وقالت :

- هه ، صاحب فعلا !

غمز لها بعينه متسائلا :

- ماذا ، هل يمكنك أن تقولى بأننى كنت فى شبابى صاحب سئ ؟

نظرت إليه من أسفل فى خبث ، وقالت :

- لا أدرى .

– عليكِ أن تتذكرى .

– لا أذكر .

كف عن الاستمرار فى مشاركتها لعبتها ، وشرع يقول ما يريده :

– نحن الآن ، أنا وأنت ، لم نتقدم بعد فى العمر .

– إذن فهذا هو اتجاه الحديث ، وماذا هناك أيضا ! بعد عامين سأبلغ الخمسين ، لقد عشت حياتى .

قال بنشاط وخفة :

– أما أنا فعمرى خمسون عاماً ، لم يضع واحد منها ، وليس هناك ما أشكو منه ، ويمكن لكلينا أن يتزوج خمس مرات .

– ما هذا الذى تقوله !

– ماذا ؟ هذا هو الواقع .

ارتج الأتوبيس ، قبض نيكولاى دون إرادة منه على كتف أنّا ، لكنه لم يرفع يده فى الحال مالت بكتفها قليلا إلى أسفل منتظرة ، ثم التفتت نحوه . سألها :

– خفتِ ؟

– لا ، لا . أى خوف هنا ؟

– انهض ، علينا أن ننزل الآن .

خيم الظلام تماماً على الشارع . كانت تتصاعد أشعة بنفسجية مستقيمة من الثلج الذى نزل ومازال دافئا وأبيض . بدا الجو أكثر دفئا ، ولسبب ما كان هناك اعتقاداً بأن هذه الغبطة الشتوية لم تأت بشكل عفوى ، وإنما كانت على نحو ما مرتبطة بلقائهما . سارا إلى الفندق صامتين ، وقد راحت ندف الثلج الرقيقة تُدَوِّم بالقرب من النوافذ الواسعة المضاءة . جرّفت أنّا ، ضاحكة ، الثلج بقدميها مخلفة وراءها خطا متعرجا . نظر نيكولاى إليها وراح يضحك بلطف ورقة . عند الباب توقفت أنّا ، وقالت فى جدية :

- أنا خائفة .

- ادخلى ، ادخلى . ما المخيف هنا ؟

- سيقولون : لستِ أخته ، ولستِ زوجته ، فلماذا تدخلين معه ؟

- سترين بنفسك . لن يقول أحد أى شئ . ادخلى .

صعدا إلى الطابق الثانى . سارا فى الممر الضيق الطويل ، تقدمته أنّا وأخذت تركض متلفتة حولها حتى وصلا إلى نهايته ، وبينما راح نيكولاى يفتح الباب ، التصقت هى بالحائط . فتح الباب عن آخره أمامها:

- هنا أسكن .

اعترتها الدهشة ، وقالت مغمضة عينيها من تأثير الضوء الباهر :

– تصور ! عندك هنا كما لو عند أى وزير .

انطلق ضاحكاً فى سعادة .

– لا ، صحيح . أنا لم أتردد مرة واحدة فى حياتى على مثل هذه الغرفة . تليفون ، ستائر ، أريكة . هل صحيح أنك تعيش هنا بمفردك ؟

– بمفردى .

راحت تهز رأسها وهى مازالت بعد مندهشة . فقال نيكولاى :

– اخلعى معطفك . سآتى حالا .

خرج إلى مكان ما . خلعت أنّا معطفها الشتوى ، جلست بالقرب من المائدة متفحصة فيما حولها ، ثم نهضت فى الحال متجهة نحو النافذة : كانت تطل على فناء خلفى غير ملئ بالصناديق والبراميل ، تَكَوّم على أرضيته الثلج غير المدعوك الذى لم تطأه قدم كما لو كان على مرج فى غابة . أطالت التحديق فى الثلج ، ثم حولت نظرها عن النافذة ، فرأت إلى جوارها التليفون ، مررت يدها فى حرص على أعلى السماعة الخضراء الملوية مثل القوس . تناهت إلى سمعها خطوات من وراء الباب، اعتورها الفزع وأسرعت بالجلوس على الأريكة . دخل نيكولاى ، كان صوت تنفسه مسموعا . وضع على المائدة زجاجتين من النبيذ وذهب لاحضار الفتاحة . أظهرت أنّا دهشة مصطنعة ، وقال :

– وهذا أيضا ، لماذا ؟

– سنحتفل ، يا أنّا .

– هل جننت !

ضحك فى سعادة قائلا :

– وعليكِ أيضا أن تُجَنِّى بسرعة لكى نكون معا .

– لكن ما الحاجة لكل هذا النبيذ ، فكر قليلا !

– قد نحتاج إليه .

راحت تتطلع إليه بخوف وفضول وهو يقطع الخبز والسجق ويفتح الزجاجات والعلب حتى ذاب خوفها ، ابتسمت ، وفجأة تنبهت ، فأخمدت ابتسامتها ، إلا أنها عادت فابتسمت ثانية ، وسألت فى تحدٍ :

– معنى ذلك أننا سنحتفل ؟

– سنحتفل يا أنّا . سنحتفل .

أشار بيدها قائلة :

– إذن ، هيا بنا . فلنعش مرة واحدة كما يقولون .

– عينُ العقل ، وعلى طريقتنا .

صب النبيذ فى الكؤوس ، نظر إلى المائدة ماسحا يديه ، ثم قال :

كما لو كان كل شئ على مايرام . هيا ، تعالى هنا بالقرب منى . فلنشرب نخب اللقاء . ارفعى كأسك ، فكم سنة لم ير أحدنا الآخر .

كررت أنّا :

– نخب اللقاء .

قرعا كأسيهما ، وشربا . أغمضت أنّا عينيها ، ثم راحت تفتحهما بحذر وهى تضع الكأس على المائدة . مد نيكولاى يده ثانية نحو الزجاجة . حاولت أنّا إيقافه ، ولكنه أزاح يدها . فسألته :

– هل تفكر ، ربما ، فى إسكارى ؟

انفجر ضاحكا ، وقال :

– من الضرورى أن انتقم للماضى .

– لأى ماضى ؟

– لأنك لم تتزوجينى . هل نسيتى ؟

– ربما أذكر ، وربما لا أذكر .

– ولكننى أستطيع تذكيرك .

صمت فى غضب . رفعتْ عينيها نحوه ثم خفضتهما فى الحال . صار الموقف حرجا لكليهما . فقال :

– هيا نشرب . لنجرع هذه الكأس ، ولنمحو كل ماكان . لنحتفل ، والعبرة بالنهاية .

وافقت معه ، ورفعت كأسها قائلة :

– لنحتفل . أريد أن أشرب نخبا من أجلك ، من أجل أنك ماتزال موجودا وبصحة جيدة .

– شكرا .

– ومن أجل أن يكون كل شئ لديك على مايرام .

أمسكت بالكأس بين يديها ، استغرقت فى التفكير حول شئ ما . سعل نيكولاى . تنبهت فجأة ، وتجرعت كأسها بسرعة ملقية نظرة عليه . ثم قالت :

– أنا لم أسألك ، ماذا تعمل حاليا ؟

– ميكانيكى فى الشعبة .

– هكذا إذن ، رئيس بصحيح .

قال مازحا :

– وأكبر رأس .

– وأنا حلابة ، قريبا سيكون لى خمسة عشر سنة فى المزرعة . لابأس ، فقد أعتدت ذلك كما لو كان حتميا .

سألها :

– هل تزوجتِ بعد الحرب ، أم لا ؟

– تزوجت – أجابت ، ثم غرقت فى الصمت . قوست ظهرها

مرتكزة على المائدة ، وراحت فى تفكير عميق . بعد ذلك اعتدلت على مقعدها ، وأخذت تحكى :

– أنت لاتعرفه ، كان من القادمين الجدد إلى البلدة . أما أنا ، من الممكن القول بأننى عطفتُ عليه . كان معوقا يسير على قدم واحدة . أشفقتُ عليه وأخذته إلى بيتى . بعد ذلك لعنتُ نفسى ألف مرة . فى البداية لم يكن هناك أى شئ ريثما كان بعيدا عن الشراب ، ثم بدأ يسكر .

تنهدت وأبعدت الكأس عنها ، ثم أضافت :

– أن تسكر حتى النهاية ، فهذا أمر مفهوم : مشاجرات وعربدة ، ثم ضرب . لقد سيطرت عليه فكرة الغيرة . هل كان بامكانى الجرى وراء الرجال ؟ لقد كنت أعمل ليلا ونهارا – أنت نفسك تعرف ، آنئذ كانت الأيام مريرة – فقط كان العمل ، فأى رجال يمكن أن يُجَدوا فى مثل حالتى – كانوا يأتون بدون أيدى ، وبدون أرجل ، وفى الصباح يتكرر كل شئ ، ولايوجد سوى الذهاب إلى العمل . هه ، ما الفائدة الآن من الكلام عن ذلك ...

– احكِ ، احكِ !

تذكرت ، فقالت مستطردة :

– لم يكن يحب الولد ، ابنى من ايفان . أما هو فلم يكن لدى منه أولاد . لم يكن يعجبه شئ أبدا ، فدمر كل شئ . وأنا كالبلهاء

ظللت أصبر ، وظننت أنه من الممكن أن تستقر الأمور وتسير على ما يرام - لا ، كان كل شئ يسير من سيء إلى أسوأ . فالى أى حد يمكن الصبر ؟ فى إحدى المرات هاج وثار علىّ ، فلم أحتمل . ما جدوى مثل هذا الرجل ، وقد كان بإمكانى أن أعيش بدونه ، أليس كذلك ؟

لم يرد نيكولاى ، فراحت تكمل :

- هذا أكثر راحة وهدوء . من وقتها وأنا ما أزال وحيدة . جاءنى خُطّاب ، لكننى لم أشأ أن أجرب حظى أكثر من ذلك - كفى . كان عندى رَجُلان ، لكن الانسان ، بالطيب والمعروف ، فى حاجة إلى واحد فقط . وإذا لم يحالفك الحظ فى الحال ، فلا يجب أن تنتظر حتى تصير محظوظا . عموما بمفردى أعيش بشكل غير سئ ، سيدة نفسى ، لاضرب ولا لوم أو عتاب . لا أحد يمكنه أن يقول عنى كلمة سيئة ، لقد ربيتُ شابا ، وقد أصبح الآن رجلا ، تزوج فى العام الماضى . هاهى حياتى كلها حكيتها لك .

- عين العقل فعلتِ .

- ياا .. ه ، لقد أصبحتُ ثملة جدا - أغمضت أنّا عينيها ، ابتسمت ، أخذت تهز رأسها - أخشى أن أقع عندك هنا ، فأنا لا أشرب عادة إلا فى الأعياد : اجتمع مع النسوان ، نبكى . ونغنى بعض الأغانى - مع بعضنا البعض .

سألته فجأة :

– وماذا عنك ؟ إننى أثرثر ، وأثرثر ولا أعطيك فرصة حتى لقول كلمة واحدة. رب أسرة أم ، ربما أعزب ؟

– رب أسرة . فأين المفر من ذلك ؟

– والمرأة ، من هنا ؟

– لا ، لقد أتيتُ بها من أوكرانيا .

– هكذا إذن ! ألم تعجبك واحدة من هنا ؟

قال محدقا فى عينيها :

– كانت هناك واحدة أعجبتنى ، ولكنها رفضتنى .

– لا عليك ، ما الذى يمكن أن نقوله الآن عن ذلك ؟

– هذا فقط مجرد تعليق على كلمة «لم تعجبك» .

– أما زلت غاضبا منى حتى الآن ؟

– لا ، لماذا ؟ لم يعد إلا ذلك – أغضب منك !

قالت :

– أنت ترى بنفسك ، كيف سارت حياتى .

– أرى .

– هكذا هو الأمر .

لَفَّهُمَا الصمت . لسبب ما دارت أنّا بعينيها طارفة فى أرجاء الغرفة. ثم وضعت كفيها على جبينها وطأطأت رأسها . لمس نيكولاى كتفها قائلا :

– ماذا بك ؟

رفعت رأسها :

– آ ، لاشئ . لقد طاف بذهنى شئ ما .

اقترب منها بمقعده ، فقالت له :

– كوليا ، صب وتعال نتذكر ايفان .

نظر اليها وكأنما يزن الأمر : يصب أم لا . وفى النهاية صبًّ .

قالت فى تحذير :

– لايجب قرع الكؤوس .

عَبَّتْ كأسها دفعة واحدة .

صمتا لفترة قصيرة تعادل فترات الصمت التى من المفترض أن تكون فى مثل تلك المواقف . بعد ذلك قالت بصوت يكاد يكون مسموعا :

– كان إنسان جيدا . سوف أظل أذكره حتى نهاية حياتى .

رد نيكولاى :

– عندما كتبوا عنه ، ظللت أسير لمدة أسبوع تائها . كنا أحسن الرفاق ، وأنتِ تعرفين . وحتى عندما بدأت لقاءاتكما ، لم

أغضب منه . غضبتُ منك فقط ، أما منه فلم أغضب .

قالت :

– كنا نعيش كحمامتين ، ولا أدرى ماذا كان يمكن أن يصير لو لم يستدعوه . لقد عشنا طوال عام كامل ، بشرفى ، كحمامتين .

– كنتما تعيشان بشكل جيد ، أنا أذكر .

– لم تكن تواتينى رغبة فى النظر إلى أى إنسان عندما كنت إلى جواره .

قال نيكولاى :

– ولذا لم تحبينى .

طالعته أنَّا مرتبكة ، وقالت له راجية :

– لا داعى – لماذا ذلك الآن ؟ أنت تعرف ، لقد أحببتك قبله ، وكنت أعد للزواج منك ، ولكنه ظهر . لا تغضب منى .

– ما الذى يجعلنى أغضب منك الآن ؟

– لا تغضب ، لاداعى . أنا لم أفعل ذلك بدافع الشر .

– كفاكِ .

– خلاص – وافقت باستسلام . وفجأة أطلقت ضحكة موارية فمها بيدها ، ثم قالت من بين ضحكها :

– المعوق ، هذا الذى كنت أعيش معه ، كان يغار علىّ من ايفان – كفتْ عن الضحك – يغارمن قتيل . ياله من طاعون !

قال نيكولاى :

– مازلتِ كما أنتِ . هرمتِ ، ولكن طبعكِ كما هو .

– هه ، لا عليك . ولكن لماذا تقول ذلك ؟

– لأننى كنت أتمنى ، وحتى الآن ، لو تزوجتك .

احتملت نظرته ، وقالت :

– إذن هيا ، أنا موافقة .

– هيا .

قالت مفكرة :

– لن تفعل . سأذهب ، ولن تفعل . أعتبر أننا الآن قد سوينا حسابنا .

قال :

– سأفعل ، حتى وأن كان اليوم .

قالت مستغرقة فى الضحك :

– اليوم ستفعل . الليلة واحدة ، وغدا تطردنى ، ألا أعرف ؟ لقد فات الأوان ، لن تحصل على شئ .

– انظری ، هكذا أنت !

– هكذا أنا . أنا كما أنا – قالت موارية عينيها – ثملة ، سكرانة . تُرى لو رآنى ايفان الآن ، لوبخنى .

– ماذا جرى لك . طوال الوقت ايفان ، ايفان ؟ لن تعيدى ايفان الآن بذلك ، ولن يهوّن كل هذا عليك .

– هذا صحيح . ما عسانى طوال الوقت ، ايفان ، ايفان ؟ لا تغضب منى .

أجاب فى زعل :

– حسنا ، المسألة ليست فى ذلك .

– لقد أصبحتُ غير طبيعية على نحو ما . أحيانا يبدو لى أن كل شئ جيد وعلى ما يرام ، وأحيان أخرى أتذكر فجأة مصيرى ، فأبكى وأبكى . وما انتهى من بكائى حتى أشعر مرة ثانية أن كل شئ على مايرام . أعيش وكأنهم سيغرقوننى غدا ، ولكنهم بعد غد يضعوننى فى الشمس ، كى أجف . والآن أفكر : مرت حياتى على نحو سئ ، أو جيد، فقد مرت والسلام ، ولاشئ يمكن انتظاره . فى الماضى ، كان التفكير فى ذلك شيئا مفزعا . والآن ، لاشئ ، فقد تعودت ، وهذا أفضل على كل حال . ليس هناك ما أفخر به فى حياتى ، ومع ذلك لا أود الشكوى ، وتشبيه الحياة بزوجة الأب ، فكل ما كان هو ملكى .

بالرغم من كل ذلك ، فقد سألها ايفان :

– ولكن إذا كنت قد تزوجتنى ؟

تسمرت وكأنها تستمع إلى نفسها ، ثم هزت كتفيها على نحو غير واضح :

– لا أعرف يا نيكولاى . لايمكننى أن أجزم . ها أنت حى ترزق ، بصحة جيدة – مدت يدها حتى لامست كتفه – لا أدرى يا كوليا، ربما كنا قد عشنا معا كذلك . لماذا نتحدث الآن عن ذلك ؟

– ولكن ، على الأقل ، هلى تتذكريننى ؟

– أتذكر ايفان أكثر . لا تغضب ، فهو زوجى . ولعلنى الآن ، سأتذكرك بعد اليوم .

– لم يحدث بعد شئ يمكن أن تتذكرينه .

– كيف ! فأنا سعيدة بأننى التقيت معك . وبأننا لسنا غرباء .

قال نيكولاى :

– في زمن ما كنا نتعانق خلف البيوت .

– فعلا – ردت فى ارتباك ، ومع ذلك فقد كان واضحا أن الذكريات قد بعث عليها السعادة – ما كان قد كان . كثيرا ما بقينا حتى تصيح الديكة ، وفى الصباح ...

صمتتْ أنّا ، فقد انفتح الباب فجأة وطلت منه رأس أحد ما ، تمتمت بشئ ما واختفت فجأة . انفجرت أنّا بالضحك :

– ها هو أحد المزعجين .

– هؤلاء المزعجين قد أضجرونى . فى الصباح ، والضوء لايكاد يستبين ، دق أحدهم الباب ، وعندما فتحت ، قال : «آسف ، أخطأت» . الواحد منهم لايبصر ويخوض هكذا كيفما اتفق .

صب نيكولاى مرة أخرى ، وقال .

– لنشرب كأسا أخرى ، فلم يبق إلا قليل .

تناولت أنّا كأسها بيديها الاثنتين ، قربته لتقرعه بكأس نيكولاى ، وقالت :

– فعلا ، لقد احتفلنا كما ينبغى ، وبإزعاج تام .

– من حقنا ، فنحن لم نلتق نصف عمرنا ، الآن كل شئ مباح لنا .

كررت فى دهشة :

– نصف عمرنا لم نلتق . معقول ! ومع ذلك التقينا . عرفتنى أنت فى البداية ، تذكرتنى رغم كل شئ ، هه ؟

– آخ نيوركا ، نيوركا !

سألته فى تحد :

– ماذا تريد من نيوركا ؟

– امرأة رائعة أنتِ .

– وما الرائع فيّ ؟ امرأة كأى امرأة . وهن كثيرات .

– أليس من الجائز أن أكون فى حاجة إليك أنت بالذات ؟

كركرت ضاحكة ، أشارت له مهددة باصبعها ، وقالت :

– كيف ذلك ، صرتُ ضرورية ! أنا ثملة ، فليكن . الأمر سيان ، لكننى لم أسكر بعد . ليس هناك أمل ، فلن تحصل على شئ .

– هكذا ؟

– نعم ، هكذا .

نهض ، أغلق الباب من الداخل بالمفتاح . سألته فى هدوء :

– لماذا أغلقت الباب ؟

– لكى لاينطون واحدا وراء الآخر . لقد أزعجونى .

– مكّار ، مكّار . آه يا ثعلب .

اقترب منها ، ضمها من الخلف إلى صدره . التفتتْ إليه قائلة :

– قررتَ اللعب ؟

– قررت .

– إذن فلنلعب . منذ زمن بعيد لم ألعب مع الرجال .

– لستِ خائفة ؟

- وماذا يخيفنى ؟

ضيّقا عينيهما ، نظر كل منهما فى عينى الآخر . سألها نيكولاى :

- هه ، إذن ستتزوجيننى ؟

انفجرت أنّا ضاحكة ، وقالت :

- ما أسرعك ! ستتزوجيننى ... زوجته تنتظره فى البيت ، وهو يخطب واحدة أخرى هنا . ألم تجد سوى تتزوجيننى هذه ، قلها ولو حتى بشكل آخر . ألم أقل لك أنه ليس هناك أمل ، ولن تحصل على أى شئ .

- سنرى .

- ليس هناك ما نراه .

- مالكِ هكذا ؟ - قال ذلك مبديا غضبه .

ضحكت قائلة :

- ألم أقل لك : زوجتك تنتظرك في البيت ، وأنت هنا ...

- وأنتِ ، من ينتظرك بالبيت ؟

قررت فى استسلام :

- لا أحد ينتظر ، هذا صحيح . لو كان ايفان ...

قاطعها ثانية :

- ايفان ، ايفان . تعزفين على نغمة واحدة ، وتكررين .. إذا كان الحال كذلك ، فايفان أيضا لم يكن قديسا . كنتما تعيشان معا ، لكن ما أكثر ما كنا نركض إلى البنات .

تغضنت ملامحها من هول المفاجأة . ابتسمت فى حرج ، ثم قالت غير مصدقة :

- أنت تكذب .

- ولماذا أكذب ، فكرى بنفسك !

- أنت تكذب يا نيكولاى .

صمت فى إرتباك . ثم قال :

- لم يكن من الضرورى الخوض فى هذا الحديث ، ولكننى على كل حال قد قلت وانتهى الأمر . لقد مات ايفان منذ أكثر من عشرين عاما ، فهل ستغارين عليه الآن ؟

- وهكذا أيضا !

رفعت أنّا يديها من فوق المائدة ، وضعتهما على ركبتيها ، تقدمت قليلا إلى الأمام كما لو كانت تحدق فى شئ على المائدة ولا يمكنها بحال من الأحوال رؤيته ، راح يتابعها فى توتر بينما كانت ساكنة تماما ، وبالكاد أخذت حواجبها ، فقط ، تتحرك ، وبدا كأنها تحاول رفع عينيها ولا تستطيع . نادى عليها :

- أنّا !

انتبهت قائلة :

- هه ، لا عليك . هذا هراء ، حدث ذلك أم لم يحدث ! - رأت نبيذا فى الكأسين ، فاعترتها البهجة - إننا لم نشرب بعد ، أى بشر نحن ؟

لم تنتظره . عبت كأسها دفعة واحدة ، أعادتها إلى المائدة بقوة ، تسمرت مرة ثانية ، ثم هزت رأسها بابتسامة مرة ، وقالت :

- حقير ! ولم أكن أعرف . نعم حقير ، هكذا كان حقيرا !

- ماذا جرى لكِ ؟

ضحْكت أنّا ، فى عصبية ، بصوت عال ، وقالت :

- لاشئ . لقد تذكرت أمرا ما . تقول أنك ستتزوجنى ؟ أم رجعت فى كلامك ؟ احذر ، فيمكننى أن أفعلها بصحيح .

لم يرد . ضحكن أنّا بصوت أعلى :

- عريس ! سأتزوج ، سأتزوج ، وهو نفسه فى هلع . وها أنذا كنت قد فرحت .

سكنت فى الحال .

- حسنا ، لقد احتفلنا - شدت جسدها مطأطئة رأسها - حسنا ، وكان الحديث ممتعا ، عن الحرب والنسوان والرجال والبنات - أطلقت ضحكة قصيرة - حكينا لبعضنا كل ما هو ممتع -

صمتت - تذكرنا ايفان . فى البداية تذكرناه ، وبعد ذلك ذكرناه كما ينبغى - صمتت مرة أخرى - حقيرا ، هه !

نهض نيكولاى ، اقترب منها حتى كاد يلامسها ، وقال :

- اسمعى ، لقد لفقتُ كل ما قلته عن ايفان . ضايقنى أنك طوال الوقت تتحدثين عنه . انفجرتُ ، كنتُ أود إثارتك ، لكن لم يحدث أى شئ من هذا القبيل .

ردت فى إرهاق :

- أنت تكذب .

- أنا لا أكذب .

- تكذب . أنا أرى الآن ، وليس آنذاك أنك تكذب . لقد قررتَ أن تشفق علىّ ، لا داعى للاشفاق - تنهدت فى مرارة - ماذا كان يحتاج ؟ شئ مؤسف. لو فعل المعوق ذلك - لما كان مؤسفا ، ولم تكن تهتز ولو شعرة واحدة فى جسدى . لكن ذلك مهين من ايفان . لقد أهاننى ، لم أكن أستحق ذلك .

انفجرت بالبكاء - دون دموع . كان من الصعب جدا ، مع هذا النشيج الأخرس مثل الأنين - ألا تخفى وجهها . راح نيكولاى يدخن فى حرقة مُمَصْمِصاً فلتر سيجارته . هدأت أنّا سريعا ، ولكن جسدها ظل يرتجف لفترة طويلة . كان وجهها جافا ، ومع ذلك فقد ذهبت إلى الحمام

لتغسله . أخذت تتحرك بخطوات بطيئة فى حذر وكأنها تخشى ، طوال الوقت ، أن تسقط ، وكل منهما يحاول ألا ينظر إلى الآخر . عادت من الحمام ، وقفت بمحاذاة المائدة ، قالت بنبرة يشوبها الاحساس بالذنب :

– لقد سكرتُ عندك فعلا .

اختلس إليها نظرة متلصصة ، ولم يتفوه بشئ . قالت :

– سأنصرف .

– انتظرى – طلب منها – اجلسي خمس دقائق فقط ، هكذا دون شئ .

جلست على طرف مقعدها . حط عليهما الصمت . مضت خمس دقائق ، ومرت دقائق أخرى . نهضت أنّا ، قالت :

– يجب أن أذهب .

راح يرتدى ملابسه من أجل أن يوصلها .

... ركبا الترام . كان هذا هو الوقت الذى يوصل فيه الأحباء حبيباتهم إلى المنازل . جلس نيكولاى وأنّا متلاصقين وقد أمسك بيدها فى يده . راح الأحبة يتطلعون إليهم بفضول ويبتسمون .

لا أستطيـ... يـ... يع

تأخرنا أنا ورفيقى علي موعد القطار الكهربائى ، فركبنا التالى بعد أن قطعنا تذكرتين فى عربة ذات مقاعد محجوزة . العربات الحالية أصبحت سيئة – أما لأننا مضطرين إلى العودة للركوب فيها بعد التعود على الركوب فى عربات المقصورات ، وليس الارتقاء والتدرج كما كان يحدث فى السابق : أولا ركوب العربات العامة ، ثم العربات ذات المقاعد المحجوزة ، وبعد ذلك عربات المقصورات ، أو أنه فى الواقع قد صارت السكك الحديدية فى غاية التدهور والانحطاط . أما هذه التى اندسسنا فيها ، فكانت قذرة ومسوّدة من أثر الدخان ، وعلى نحو ما لم تكن قد نظفت أو أعدت للركوب . كان الكمسارى فتاة حسنة من الطالبات بعينين واسعتين ، بدا وجودها غير مناسب . وبمجرد أن تحرك القطار ، اختفت ولم نرها بعد ذلك طوال ساعتين ونصف . على أية حال كان القطار ليس للمسافات البعيدة ، وبرقم يتكون من ثلاثة أعداد – من يلتفت لمثل هذا ، ومن سيتعرض له بالانتقاد ؟ أهم شئ أن يوصلنا فقط ، إذ إنها – تلك التى للمسافات القصيرة – تتوقف حسب هواها .

استوينا على مقعد طويل شاغر أمام عجوز معها كتاب ، وشرعنا فى التطلع حولنا . كانت العجوز تقرأ بدون عوينات – ذلك يجب ملاحظته كعلامة مميزة فى سنها . فقد أمسكت بكتاب سميك منتفخ على ركبتيها ، بينما أمالت رأسها الأشيب فى أناقة وعليه مشط كبير يمسك

بشعرها المقصوص على نحو قصير . كانت شفتاها تتحركان أثناء القراءة ، ووجهها اللطيف المتغير يشي في اهتمام ساذج بتلك الحياة التي في الكتاب . على الرف العلوى ، فوق العجوز ، دار رجل في أواسط العمر ونظر إلينا في ارتياب بعينين رماديتين جميلتين في وجه طويل أصيل ، يرتدى ملابس رياضية من التريكو - سوداء مخططة بالأبيض ، إلا أن الخطوط راحت تلمع بانعكاس على رأسه الآخذ في الصلع . كنا في رأيه ركابا غير جادين : اثنان معا بحقيبة واحدة ، وإضافة إلى ذلك أيضا ، منتشيان من شئ ما . والنشوة تحت تأثير السُّكْر أمر يمكن فهمه ، ولكن بدون سكْر ، فهي شئ يدعو للريبة ، وخاصة في قطار . ومن الممكن أن تكون أيادينا الثلاث الخالية قد عكرت صفو هذا الراكب من أعلى ، بل ومن الممكن أن يكون شئ ما أكثر جدية وخطورة . ولكن من الواضح أننا لم نكن نعجبه .

وقف رفيقي ، كعادته في الاهتمام بالآخرين ، وطاف في العربة . وحينما عاد ، أخبر بأن العربة ويا للعجب غير مزدحمة ، ثم راح يناقش لماذا يندر الراكب في مثل هذه الأوقات (المسألة تعود إلى شهر سبتمبر). اقترب من مقصورتنا الفضوليون للاستماع اليه : صبي وفتاة في حدود سن الخامسة - السابعة ، كان قد أفلح خلال خروجه القصير أن يثير إهتمامهما بشئ ما . توقف اليج (هكذا كان يسمى رفيقي) ، مد يده في جيوبه ، عثر هناك على قلم جاف ومشط ، فمد يده بهما إلى الأولاد . أما هذا فقد تناولهما في تغضن دون أن يعرفا ماذا يصنعان بهما ، فظلا

واقفين بالهدايا فى أيديهما وكل منهما ينظر إلى الآخر فى ارتباك . أطلق الرجل من أعلى ضحكة ساخرة ، ويبدو أن هذه الحركة الصريحة وغير الماهرة قد بعثت فى نفسه الطمأنينة - حيث اتجه إلى الناحية الأخرى . وبينما رفعت العجوز الكتاب قليلا متصنعة أنها لم تنقطع عنه، نظرت إلى رفيقى مُضَيِّقة عينيها الوجلتين فى خوف لن يصلح معه أى شئ مهما حاول منحها هى الأخرى أى شئ مماثل . وشيئا فشيئا سار التعامل معنا ينحو فى اتجاه أننا غير طبيعيين .

فجأة تناهى إلى أسماعنا ، ليس أنينا أو صراخا ، وإنما شئ ما جسور وقاسى لدرجة صرنا معها فى حالة سيئة . انتفض اليج :

- ما هذا ؟

- هذا هناك ، عمٌ يبكى - قالت الفتاة ، وأشارت بيدها إلى عمق العربة .

- عمٌ يبكى ؟ من أى شئ يبكى ؟

- تعتعه السكْر - شرح الصبى بصوت جهورى «باص» .

الآن ، عندما بدأ الكلام ، صار واضحا أن الصبى أكبر سنا من الفتاة ، ويعرف شيئا ما فى الحياة .

انقطعت العجوز فى نهاية الأمر عن الكتاب ، وبعد أن تطلعت فى الممر ، أكدت فى تأوه : - أوه ، لقد أثرت الازعاج . قبل الدخول إلى المحطة هددوه بالميليشيا ، فسكت وانهمد . والآن يعود من جديد .

– لا أستطيـ ... يـ ... يع – فجأة صاح صوت قريب صيحة مدوية – لا أستطيـ ... يـ ... يع !

– ليتك تفطس ! . – رد الرجل فى ملابس التريكو من أعلى ، وجلس فى امتعاض مدليا قدميه فوق رأس العجوز – لا ، فى المحطة القادمة لن أدعك تكمل لقد أردتُ ، أردتُ انزاله بالمعروف من أجل أن نسافر جميعا بشكل إنسانى !

– لا أستطيـ ... يـ ... يع . قاطَعَ صوته بشكل أكثر يأسا ومرارة .

ذهب اليج ، بعد أن ضاق صبرا ،ليتفحص الأمر وأنا من خلفه . بعد حاجزين من مقاعدنا أطرق شخص متسخ بالى برأسه الأشعث ، فى معطف قديم ملوث من النايلون وحذاء من المطاط ، ومن حين لآخر يقرع رأسه بالطاولة وهو يتلوى متشجنا . كانت المقصورة خالية ، لم يكن هناك أحد لديه رغبة فى رؤية ما يحدث فيها من آلام . جلس اليج فى المقابل على الناحية الأخرى من الطاولة ، وجلستُ بجواره . هدأ الرجل الجالس أمامنا دافنا رأسه فى الطاولة لفترة قصيرة وكأنه ينصت إلى نفسه ، أو إلى ذلك الذى يدور من حوله . بعد جهد عنيف لتمالك نفسه ، أطلق فى اختناق أنينا طويلا دفينا – لم يكن يستطيع أن يتصنع ذلك عمدا وبهذا الزفير المتقطع من حلقه ، فالألم الهائج فقط هو الذى يمكنه أن يخرج بهذا الشكل . أخذ اليج يهز المسكين من كتفيه ، أما هو

فقد ظل لفترة طويلة لايشعر بأى شئ ، ولايفهم أى شئ ، ثم رفع رأسه في النهاية كاشفا عن وجهه ، وحملق فينا بلا معنى .

لم يكن فى استطاعة أى عدو أن يصنع معه ما صنعه هو ذاته مع نفسه . شخص مسن ، ومع ذلك فكل شئ مايزال ، ولو بصعوبة ، مميزا فيه ، العينان الزرقاوان المسحوبتان ، اللتان بلا شك كانتا صافيتان فى زمن ما ، والمنتفختان المليئتان بالعروق الدامية ، صارت الآن مغلقة لاتقدر على مواجهة ضوء النهار ... كانت فى الواقع ترى ضوء النهار بشكل سئ ، ولكنها كلما حدقت أقوى وأقسى فى دواخلها ، أجبرت هذا الشخص على الصياح من الفزع . أما شعره الكثيف الفاتح قد أصبح ، من القاذورات ، أرقطا وقد تهدل فى تشعث . وجهه المستدير ،المتد باعتدال إلى أسفل بذقن قوية دقيقة وأنف أخنس قليلا ، الذى ضاع فى كل تلك الهيئة البسيطة المتواضعة ليعكس سلامة طوية وحميمة وإخلاص- هذا الوجه المنتفخ المشعر ، الثقيل الغارق فى دماء بشعة ، اكتسى الآم بحمرة سوداء خامدة ، حتى الغمازة فى ذقنه بدت وكأنها جرحا غائرا . أما كم عمره ، فمن الصعب تخمينه – تحت الثلاثين ، أو فوق الأربعين .

وإذا ماتذكرنا – هؤلاء الرجال ، أسلافه الحقيقيين ، بذلك الشعر الأشقر والوجوه البسيطة الناصعة ، وأية صنائع عظيمة ونادرة قاموا بها ، وتركوها لكى تصبح من نصيب مثل هذا الانسان – فهم الذين

ساروا إلى ميدان قتال كوليكوفو[1] ، واحتشدوا على نداء منينا وبوجارسكى[2] عند نيجنى نوفوجرد ، وائتلفوا فى جماعة ستينكى رازين[3] ، قاتلوا مع يرماك فى سبيل الأورال ، هبوا لفلاحة الأرض التى اتسعت حتى أصبحت أكبر بكثير مما لو وضعنا فيها ضعفى مساحة روسيا الأصلية ، وانتصروا على هتلر ... وها هو الآن الابن .

أمعن رفيقى فى هزه :

– ماذا ؟ ماذا بك ؟

– أستطيع – همس بصوت ثمل متقطع .

– أنساعدك بشئ ؟ بأى شئ نساعدك ؟

– لا أعرف .

– لو بمرقة دجاج ... فهى تُلَيِّن المعدة – نصحت العجوز من مقصورتنا ، ولم نلاحظ كيف تجمهر الناس من حولنا .

– ليس فى حاجة إلى مرقة دجاج ، إنه محتاج إلى جرعة أخرى محترمة – بصوت قوى عال ، وفى دراية بتلك الشؤون ، كما هو واضح ، اقترح عُتُلٌ أشقر بالقرب من الصبى والفتاة اللذين كانا موجودين عندنا .

ضج الجميع دفعة واحدة :

– نعم ، جرعة واجعلها دُبل لكى يهيج أكثر من ذلك .

– هه ، فى حاجة إلى جرعة . يجب ربطه وتكميم فمه .

– كأننا نسافر فى مركز إزالة السكْر . ليست هناك أية حكومة ، لقد فر الجميع . هلا استدعيتم رئيس الوردية ، أين هو ؟

– ستسافر كما في عربة نقل الموتى – قال العُتُل مغنيا بصوت «باص» عميق – ألا ترون أى سكْر بشع لديه ؟ سوف يكتم على أنفاسه – بعد هذه الكلمات لم يعد هناك أدنى شك فى أن العُتُل والد الصبى والفتاة – سوف يموت هنا ، فمن سيكون المذنب ؟

جاء الرجل الذى فى التريكو من مقصورتنا مهرولا :

– ولذلك يجب إنزاله على وجه السرعة . لقد اقترحتُ ... أن السفر بهذا الشكل أمر مستحيل ، فهنا على أية حال بشر .

– ربما لاتكون لديه حتى التذكرة . وربما يكون قد رأى الباب مفتوحا فقفز . لقد أخطأ الباب .

– إنه أخطأ أشياء كثيرة .

فى مواجهتى ، كانت هناك عجوز قوية ، بعظام ضخمة ووجه قد تجلد من الهواء الرطب ، لوحت بذراعيها الهائلتين :

– حمائم ! حمائم تعسة ! يجب إزالة هذه القاذورات بالمقشة ! لقد أضنوا الناس وأتعبوهم . أن زوج ابنتى ...

– صنعوا الديمقراطية من أجل السكارى – كان هذا صاحبنا التريكو المثقف مرة ثانية – ها نحن أعظم وأرفع ! ها نحن أفضل بمائة مرة من أى أحد آخر !

أما هذا الذى هبت بسببه كل تلك العواصف ، فقد قرع رأسه مرة أخرى فى ضعف بالطاولة ، ثم تأوه فى غيبوبية كما لو كان فى النزع الأخير .

أرهف رفيقى السمع ، فكر وفكر ، ثم نهض . قرر إتباع نصيحة العُتُل .

– المطعم يعمل الآن ، ألا تعرفون ؟ سأل .

– هيا ، هيا يا عزيزى . اسأل عن أى شئ آخر ، فهذا يعمل دائما – سخرت عجوز من مقصورة أخرى – صفّر فقط وسوف تفتح كل الأبواب ، فهم لايقدمون المياه للأبقار والخنازير ، ولكن المسقاة موجودة ليل نهار للرجال ، تُقدَم فى أى طقس وفى أى جو ، وكلامى هذا لاشك فيه .

من الواضح أن العجوز كانت فعلا مؤذية ومضرة ، فأضافت :

– ولعلك أنت أيضا قد ضاق صبرك .

عاد اليج بزجاجة نبيذ . فى ذلك الحين كان الناس قد تفرقوا ولم يبق سوى العُتُل الذى كان يشعر بمسؤوليته عن النصيحة وقد جلس معى إلى جوار المسكين .

– ألا يمكن أن يجتاز المحنة ، ولاداعى للنبيذ ؟ سأل اليج .

– انظروا بأنفسكم – هز العُتُل كتفيه – لو كنت مكانكم لأعطيته . انظروا بأى شكل يتنفس ، إنه يتنفس بشكل سئ . السكْر بعد ذلك يتطلب جرعة كبيرة ، ولكن دع الرجل يسترد أنفاسه بالقليل ، سيتوقف الخطر على الفور ، أنا أعرف أنه فى حاجة الآن إلى أن نوقفه على قدميه بالتدريج .

فى هذه المرة لم تكن هناك حاجة إلى دفع الرجل ، فقد كان بدون شك يرهف السمع إلى تحضيراتنا . رفع رأسه ، وما أن رأى كأس النبيذ أمامه حتى راح ينظر إليها طويلا فى صرامة كأنه يتذكر شيئا ما ، واكتنفنا بنظرة كئيبة معذبة للغاية ، ثم قبض على الكأس بيديه واستدار نحو النافذة . ارتجت العربة ، وكان صوت اصطكاك الزجاج مسموعا . راح يرشف طويلا مثل كل هذا النوع من الناس الذين وصلوا إلى تلك المرحلة : جرعات صغيرة حذرة حتى يُسَلِّك حلقه الناشف . شرب ، وضع الكأس ، وبصعوبة رفع يديه عنها ثم قال بصوت أجش :

– ازدنى .

– انتظر ، لا تتعجل – أوقفه العُتُل – انظر إلى نفسك ، وسنسمع ماذا ستقول .

تسمر الرجل . راح يستمع إلى نفسه . سمع شيئا ما ، تغضن وأخذ يدعك صدره .

– كفاية ؟ سأل العُتُل .

– لا .

– منذ زمن طويل وأنت على هذا الحال ؟

– لا أعرف . لا أذكر – كان يتحدث في صعوبة ، بحشرجة وإرهاق ، وكانت الكلمات تخرج كما لو كانت محترقة . راح رأسه يسقط ، أخذ ينفضه على دفعات ثم رفعها كاشفا عن رقبة قذرة مفتولة العضلات ، وملفوفة فى قوة وضخامة .

– من أين أنت ، من أى صوب ؟

– من موسكو .

– هه ، بدأنا الكذب ! بدأنا التحليق ! – ضربت العجوز من المقصورة الأخرى كفا بكف متدخلة مرة ثانية فى الحديث – اكذب ، ولكن لاتفرط فى الكذب . يبقون على أمثال هؤلاء فى موسكو ! – من هناك يبقى عليه ؟ – رد صوت أحد ما من الحاجز المجاور – عموما فنحن ، على كل حال لا نركب معك الآن المترو فى موسكو .

– هلا وصفت لكم تاريخ حياته ؟ – سأل رجل تحشرج صوته وقد مال ببصره إلى الزجاجة فى يدى اليج .

– صُب – سمح العُتُل – غضبتَ منى ، وها هو الشرب قد عاد بالفائدة . لكن لا تملأ الكأس ، يكفيه النصف .

صب اليج ملء الكأس . شرب الرجل هذه المرة حثيثا ، ولاح فى عينيه بريق حاد . ولكى لاندع له أملاً ، صببنا باقى النبيذ فى ثلاثة أكواب جلبها الشباب ، ثم شربناها فى صحة الموسكوفى . نظر إلينا ، فى بقايا صحو ، بفضول متراخ ، ولكن كل شئ فيه كان ما يزال ثقيلا ، قليل الحركة ومتحجرا ، فلم يستجب إطلاقا لنخبنا .

– ما اسمك ؟ – أمعن العُتُل فى الاستقصاء .

– جيرولد .

– ماذا ؟

– جيرولد – أصابت الرجل نوبة سعال وهو ينطق باسمه .

– ألست روسيًا ؟

– روسى .

– ولكن لماذا أسموك هكذا ؟

– من أين أعرف ؟ أسمانى أبى وأمى .

– أعتقد أن هذا اسم اسكندنافى – افترض رفيقى .

فكر العُتُل :

– أنت ، يا رجل ، بهذا الاسم لعلك لم تتجه صوب حرفتك الصحيحة ، عليك أن تتسق . ولكن أنت فعلا روسى ؟

– ماذا بك ، ألا تميز من خلقتى ؟

– يا إلهى – تنهدت العجوز فى صعوبة – كم من بشر تراهم ! وكم من بشر تصطدم بهم ! ولكن لماذا لاتدعنى أنظر إلى الناس الطيبين ؟!

– أمنذ زمن يا بطل ، أو كيف يسمونك ، وأنت على هذا الحال ؟ – لم يكف عنه العُتُل .

لم يرد الرجل . كان منشغلا بشئ ما فى نفسه ، بشئ ما يدور بدواخله فى حركة مهلكة .

– امرأة ما هناك ؟ – سألت العجوز . وعندما لم يرد فى هذه المرة، قالت لنفسها فى ثقة :

– طردتك . أية حمقاء ستظل تعيش مع ذلك الفظ .

– طردت ، طردت – أكد الرجل فى غيظ ، وأضاف :

– وأدمنت هى على الشراب .

بمجرد أن نطق بذلك حتى اتضحت الحقيقة كاملة ، أصبحت واضحة كالشمس .

– معقول ! – اندهشت العجوز – والأولاد ؟ هل هناك أولاد ؟

– ابن . وهو الآخر يدمن على الشراب .

– لا . أنت تكذب – اعترض العُتُل – إنه لايدمن .

– يدمن .

– تكذب ! – دوى صوت العُتُل – ماذا بك أيها ، البطل ، أتكذب ؟!
أنك تكذب ! أنت أدمنت ، وأنا أدمن ، ولكن هذا لا يصح لهم !
– دفع يده فى اتجاه الأولاد الذين وقفوا هناك دونما دهشة أو رهبة مما يجرى – عليهم أن يعدلوا عن طريقنا ، أتفهم أيها التنبل ؟ لا تتحدث بعد الآن بهذا الشكل عن ابنك ، أتفهم ؟ ألا يجب أن يكون على أحد ما أن ينظف بعدك ... بعدنا الوساخات ؟ أم لا يجب ؟!

اندفع الناس على صوت الضجة مرة أخرى من جميع المقصورات .
هزت العجوز صاحبة الكتاب رأسها فى عتاب نحونا . وثب الرجل فى ملابس التريكو وراح يتلفظ بشئ ما . أشاح العُتُل له بيده فى ضيق وضجر دون أن يفهم الكلمات ، مثلنا جميعا ، إلا أنه كان يدرك جيدا عما تدور : عموما اعذرنا ،اهدأ ، لن نستمر بعد الآن . ولكن التريكو لم يعذر أن يتزحزح . أما الرجل ، صاحبنا جيرولد هذا ، الشاخص إلى الكرش الدقيق الواقف أمام أنفه ، فقد بحلق دون أن يفهم ثم عوج وجهه مديرا إياه بعيدا عنه .

– ... فقط حتى المحطة القادمة – أنهى التريكو فجأة فى دقة وحدة.

– فارغ ! – ألقى الرجل إليه بالكلمة فى عذوبة شديدة ، وبشكل رنان ، وكم كان كل هذا القدر من الجمال فى ذلك الصوت .

– ماا .. االذا ؟!

– أيهـا الفـارغ ! عُـد إلى زقـاقك المسـدود ولا تطنطن . لقـد أضجرتنى.

– وفوق ذلك أيضا ، إهانات ! لقد صبرتُ طويلا ! – دار التريكو حول نفسه متدبرا الاتجاه الذى سيركض منه صوب إدارة القطار .

– تمهل ، لا تحدث ضجة – حاول العُتُل إيقافه .

– أنا لا أرعى معكم الخنازير – كان الرد واضحا ومعروفا ، إلا أن العُتُل لم يفهم مغزاه ، واندهش له .

– ولكن ما شأنى ، هل أنا منحط كى أرعاها ؟ لم يرعها أحد من أسرتنا أبدا ، فهى ترعى فى الأرض بنفسها .

اندفع الرجل الذى فى التريكو مع إتجاه القطار .

– والآن ستأخذه الميليشيا – قالت العجوز من المقصورة الأخرى بلهجة واعظ – عشرة أو خمسة عشرة يوما فى الحبس .

انتاب الصبى توتر :

– مرة أخرى يابابا ؟ ماذا قالوا لك ؟ ؟ لا يصلح الذهاب معك إلى أى مكان .

– ها هو قد تدخل – أدار العُتُل وجهه مشيرا إلى الرجل – اجلس مكانك ولا تتدخل : ليس مسموح لك بالتدخل . أتفهم ؟

– أنهم لا يأخذون بسبب ذلك – قال رفيقى – لم يحدث أى شئ . لا عراك ولاسب ، لم يكن هناك شئ .

– وفارغ هذه ، لماذا ؟ أهتم العُتُل . أعجبته الكلمة . فهو نفسه خبير بمعرفة وقول هذه الكلمات ، ويحب ذلك فى الآخرين .

صمت الرجل . راح شئ ما يحتدم مرة أخرى بداخله .

– أنا أسأل : لماذا فارغ ؟

– يطنطن ، ويطنطن ! – هب الرجل بشكل مفاجئ صائحا فى غضب وغيظ واستدار فى الاتجاه حيث ركض التريكو .

– أنا أرى ، أنه هو . أنه هو ، هو ! أنا سقط متاع ، لاشئ ، نفاية، ومع ذلك فقد اشتغلت عشر سنوات بشرف وإخلاص ، لقد حارب أبى ، أما هذا ... فهو طوال حياته يطنطن بشرف وإخلاص . أنه هو ، هو !

– من ؟ لماذا تصرخ هكذا ؟ من هو ؟

– الفارغ !

وما أن دفن رأسه فى الطاولة حتى راح يرتج فى نوبة من البكاء . لحظتئذ انتهت فترة الراحة وأخذه السكْر مرة أخرى في دوامة . رحنا نتطلع إلى بعضنا البعض لاندرى ماذا نفعل ، لم يعد هناك ما نساعده به بعد الآن . لقد ذهبت مساعدتنا السابقة ، كما هو واضح ، أدراج الرياح .

– ولكن أين ستذهب ؟ أين يجب أن تنزل ؟ – سأل العُتُل فى حيرة وخرج .

رفع الرجل رأسه وصاح :

– حيث يلقون بى ، مفهوم ؟ حيث يلقون . اذهبوا عنى ، اذهبوا ! لا أستطيـ ... يـ ... يع !

لم تعد أعصابه تتحمل شئ ، لقد استنفذها تماما .

عدنا أنا ورفيقى إلى مقصورتنا . وضعت العجوز الكتاب إلى جوارها ، حاولت أن تسأل عن شئ ما ، إلا أنها لم تسأل وراحت تنظر فى النافذة ، خلف شبكة الأسلاك اللانهائية اللامعة ، امتدت أمنا روسيا ، والقطار يسير إلى الأمام يضرب على القضبان فى دقات خفيفة ، وبينما كانت تنسحب رويدا رويدا ، استدارت وبدت فى وضع ما معكوس.

نزلنا فى المحطة التالية . وحينما كنا نمر فى محاذاة عربتنا ، لمحنا فى النافذة وجها فظيعًا فرطحه الزجاج وقد مال نحونا غارقا فى الدمع بشفتين مرتعشتين . لم يكن من الصعب تخمين بماذا كانت تتلفظ . كانت شفتاه تسحب أنينا موجعا من داخله :

– لا أستطيـ ... يـ .. يع !

الهوامش :

١ - معركة بين الروس والتتار أثناء تحرير روسيا من الاحتلال التتارى .

٢ - منينا وبوجارسكى من القادة الروس الذين قاموا بالدعوة لتحرير روسيا من الاحتلال البولونى .

٣ - ستينكى رازين ، واسمه ستيبان رازين ، ولكن التسمية الشعبية الروسية «ستينكى» وقد ألهب نار المقاومة الوطنية ضد السلطة القيصرية فى القرن السادس عشر .

فـى المسـتشـفى

فى الأسـبـوع الثـالث بعـد خـروجـه من العـمليـة ، شـعـر الكسى بتروفيتش نوسوف بأن حالته سيئة للغاية . أخذ ينزف ، لم تأت الأدوية بجـدوى ، وصَـفّى ، ربما ، نصف دلو من الدم فى المرحـاض . تحـاشى نوسوف الذهاب إلى العيادة المجاورة على الرغم من أنه لم يكن يعرف هل سيقبلونه فى العيادة السابقة التى كان يذهب إليها طوال عدة سنوات منذ ذلك الحين الذى جاء فيه إلى موسكو . فمع تغير السلطة وإلغاء المعاشات الخاصة ، انتقلت العيادة إلى خدمة القيادة الجديدة ، وصارت مدفوعة الأجر بالنسبة للأغنياء ، بينما تخلصت من القيادة القديمة التى تم إقصاؤها ، وبالمرة من المُحالين إلى المعاش أيضا ؛ ولذا تباطأ الكسى بتروفيتش : لم يفلح فى الذهاب إلى عيادة المنطقة حيث كـان .. والحق يقـال ، يخـشـاها . أما فى العـيـادة القـديمة ، فلم يود التعرض للاحراج : عفوا ، لستم مقيدين لدينا .

أصابه الضعف ، وشعر هو ذلك . نهض من الفراش ، وفى الحال أخذ يبحث ، فى خطوات مترددة مهزوزة ، عن الحائط ليتشبث به . ظهر ألم عميق طاحن فى أسفل بطنه ، وعلى أثره ارتفعت درجة حرارته ، عندئذ استسلم . اتصل فى نهاية الأمر بطبيب الأمراض التناسلية فى العيادة القديمة ، الذى كان يعالجه قبل العملية . وفجأة قال بصوت ساخط أنه على استعداد للدفع مقابل الكشف ، فليس هناك مكان يذهب

إليه غير هذا . «ما عساكم – أجاب الطبيب متنهدا – طبعا ، تفضلوا . إننى لم أسلم البطاقة الخاصة بكم بعد»

لم يكُن المسير بعيدا ، ومع ذلك لم يرفض الكسى بتروفيتش مساعدة زوجته . توقفا ما يقرب من عشر مرات طلبا للراحة حتى اقتربا من مبنى العيادة المنفرد العتيق ، والغنى بالأعمدة ، ثم دخل بمفرده بعد أن تناول من زوجته الحقيبة التى صارت دافئة من وجود الترموس بداخلها . لم تكن لديه رغبة فى أن يتماحكوا معه أمام زوجته بخصوص صلاحية دخوله . ولم يشأ أن تهتاج هى بسبب التشخيص . فكل التشخيصات الآن غير صحيحة .

بعد ذلك ، وقبل الدخول إلى الطبيب ، جلس فى الممر على أريكة كبيرة بجلد أصفر واضعا بين قدميه الترموس الصينى المستدير المنتفخ بألوانه الزاهية ، وراح يشرب ويشرب .. لكى يملأ المثانة ، وكان من الضرورى أن يشرب كثيرا ، ليس أقل من لترين . كان الشاى المغلى مع الأعشاب لذيذا ، فبث فيه الدفء ليس فقط بسخونته ، ولكن برائحة البرارى الجافة أيضا . جلس بالضبط فى زاوية الممر الذى يتفرع إلى جهتين ، وكان يرى نهايتيه البعيدتين ، واحدة منهما تقود إلى درج خارجى رئيسى من الممر مفروش بالسجاد ، والثانية تتوغل فى بناء لايقل فخامة عن جناح من قصر . لم يكن الناس يتدافعون فى الممر أمام الأبواب ، أو يثيرون ضجة فى طوابير ، هنا تحدد لكل واحد موعد

للكشف . أما السجاجيد الفاخرة والأسقف العالية بالجدران الواسعة والنوافذ الكبيرة فقد أذابت رائحة المرض وشتتها مبقية فقط على رائحة النظافة المعهودة .

-كانوا قد أجروا العملية لنوسوف فى مستشفى متقاعدى الحرب . اختارها الكسى بتروفيتش بنفسه . وفى الحقيقة ، فقد اختار ليس المستشفى ، وإنما الجراح كما يفعل الكثيرون . كان جراحا ضخم البنية بيدين كبيرين مثل جاروفين ، وكأنه عامل منجم سابق . استقبل الكسى بتروفيتش بهدوء ولامبالاة ، ولكنه تحمس عندما نظر إلى صورة الأشعة. «الصور» على حد تعبيره ، أعجبته ، وبينما راح يخطو إلى الأمام وإلى الخلف بتثاقل وغبطة فى المدخل الضيق للحجرة المليئة المزدحمة بالأشياء، صب ماء مغليا لعمل القهوة فى فناجين صينية صغيرة ، وفى الفناجين الكبيرة صب كونياك من قنينة ، تحت السماور ، مكرشة بصنبور ... أما الكسى بتروفيتش فراح ينظر فى عبوس إلى «جاروفيه» ، وحاول أن يتصور الأداة التى يمكنها ألا تتهشم فيهما ، أو تكاد تضيع بين أصابعه الغليظة المتقوسة .

– سوف نجرى عمليتين دفعة واحدة – أوضح الجراح وهو يحتسى من الفنجان الكبير ويتطلع ثانية فى فضول إلى «الصور» – الانتفاخ والتجويف . هل أوضحوا لكم ما هو الانتفاخ ؟ قطع داخلى فى قناة مجرى البول . وذلك من أجل الورم الغدى ، وسندخل الأداة من خلال

المجرى . كل ما يلزم هو أن نبتر وننظف . وبالمرة سأصنع من الجهة الخارجية فى المثانة ، تلك الفتحة – ثنى إصبعه ، ثم لوح بيده ، فاتضح أن الفتحة لايستهان بها – بعد ذلك ، ولكى لاتفقدوا دما زائدا سنفتح التجويف ونزيل الرّدْب(*) .

ذلك الرّدْب الملعون الذى عانى منه الكسى بتروفيتش بكثرة خلال نصف السنة الأخير ، هو الذى أجبره على إجراء العملية ... فما أكثر تلك المصائب تهبط هكذا على الانسان ! انتفاخ زائد مجهول المصدر يطن اسمه هكذا بوجاهة وكبرياء ، ولكن الصبر عليه أكثر من ذلك أمر لايطاق . شئ واحد فقط هوّن عليه : إذا كانت توجد تسمية – فمن الضرورى أن يكون هناك علاج . لقد أعطى الكمبيوتر مقاس هذا «الملعون» ، وحسب مقدار السائل الذى يشفطه من المثانة ، وكذلك المقدار الممتزَج الذى يكفى ، إذا ما ترسب ، لعملية تقيح الانتفاخ . لقد أرغم الرّدْب الكسى بتروفيتش فى سن الشيخوخ أن يتعرف على تلك المجموعة المثقفة من المراسم والاجراءات حول التقلبات التى يستحيل الشك فى وجودها لدى الانسان البرئ المسكين .

تمت العملية بنجاح . بنجاح لالكسى بتروفيتش ، وبشكل رائع ، كما رأى ، بالنسبة للجراح . فقد قام عدة مرات بزيارات خاطفة لنوسوف فى العنبر ، كان منتعشا ونشيطا بصورة دائمة ، بل وحتى

(*) جيب يخرج من عضو أنبوبى مسدود أحد طرفيه ، مثل الزائدة الدودية . المترجم .

مرحا ومسليا ، وراضيا عن نفسه ، إذا يطوّح بالبطانية من فوق المريض ويحدق بامعان فى مكان «العورة» المغطى بالبلاستر حتى منتصفه ، وتخرج منه ثلاثة أنابيب متدلية .

– واضح أنكم أستاذ فى حل الكلمات المتقاطعة – قال على الفور بمجرد أن أعادوا الكسى بتروفيتش من غرفة الانعاش إلى العنبر .

– عما تتحدثون ؟

– ألا تذكرون ؟ لقد انهمكتم فى حل الكلمات المتقاطعة مع طبيب التخدير بينما كنت أنا عاكفا عليكم . هذا الشاعر ... الليتوانى ... كتب قصيدة «انسان» . مدينة فى شمال افريقيا ... هذا رائع . ولكن عندما فتحت الانتفاخ ، كان قد حان وقت النوم .

– لا أذكر .

وبعد إجراء الأشعة ، أجبر الكسى بتروفيتش على الجلوس لفترة طويلة بالممر الحجرى البارد – إلى أن حملوا صورة الأشعة . وفى مصعد شبه معتم ، وبمجرد أن صعدوا إلى الطابع العاشر ، وضعوا أمام الضوء ورقة سوداء فيها رسوم مائية شفافة لشئ ما ممسوخ وقبيح. وفى تثاقل وثقة دون إعلاء من قيمته ، وإنما تأكيدا على هذه القيمة ، قال :

– وكأن مثانتكم جديدة ، أترون ؟ ألا ترون حقا ؟ مثل مثانة الطفل .

مرة أخرى أقبل الجراح فى تلهف ، وتعطش للحصول على النتيجة الطبيعية المطلوبة . وكان عائدا لتوه من عملية ، وحين سأله الكسى بتروفيتش عنها ، أجابه بتأنق مبالغ فيه : «الشركة لا تصنع مقشات» ، ورائحة الكونياك تفوح منه . ومن عينيه الحذرتين المصوبتين إلى شئ ما غير واضح ، خمن الكسى بتروفيتش أن هناك شئ ما هدم .

– إنكم تنهكون أنفسكم – لم يتماسك الكسى بتروفيتش وهو ينظر إليه مدركا كم يعمل كثيرا – تنهكون أنفسكم ولن يقل عدد المرض ، بل سيصير الأمر بالنسبة لهم أسوأ .

– فى الأسبوع الماضى ... – مرة ثانية ، وعلى ما يبدو ، بشجاعة مصطنعة ، اعترف : انقبض قلبى ، لاحركة هنا ، ولا حركة هناك . أخذتُ أتضرع : يارب ، إذا كنتَ موجود ، دعه يتحرك فى أى اتجاه ولاتُسكته .

– هه ، أترون ؟

سحب الجراح البطانية من فوق الكسى بتروفيتش ، تريث قليلا وهو يمعن النظر ، وبنفس العزم انتزع الأنبوبة الأخيرة – تلك التى كان ينسكب منها السائل من المثانة في كيس من السلوفان عبر خرطوم رفيع شفاف ، وبسرعة خاطفة حتى أن الكسى بتروفيتش لم ينتبه لما حدث .

– ولكن إذا لم يخرج ؟ – سأل ببعض الخوف .

- يجب أن يخرج . سوف تقوم الممرضة الآن بالاعداد لذلك . اشربوا . ولا تفعلوا شيئا بدونى .

بعد ساعة ، ذهبا معا إلى دورة المياه - وعندما اندفع السيل من خلال المغص المؤلم مختلطا بقطع الدم المتجلط ، صاح الجراح فى رضاء وقرّب وجه القروى الضخم إلى المرآة المستطيلة الرفيعة على الحائط ، ومن هناك ، من المرآة ، غمز لالكسى بتروفيتش .

بعد ذلك ، أصبح الكسى بتروفيتش بالنسبة له غير مهم .

* * *

وها هى المستشفى مرة ثانية . كان الكسى بتروفيتش قد أصبح مستعدا لذلك ، حيث ألمّت به حالة ما من الحمى المصحوبة بالتقيحات ، ووصلت إلى حد فقدان الوعى ، وأصاب الحوض ألم كلى ، فقالوا له ألا ينهض أثناء وجوده بالبيت . ولكنه مع كل ذلك لم يكن مستعدا لاجراء عملية جديدة . لكن عندما تجمّع عدة أشخاص ، مرتين خلال يومين فى العيادة ، أمام جهاز الترددات فوق الصوتية ، توصلوا إلى استنتاج : تمزق الخياطة الداخلية ، وبدون عملية لايمكن تجاوز الأمر .

نقلوه فى المساء بعد حلول الظلام . استطاعوا أن ينقلوه فقط من تلك العيادة إلى هذه المستشفى - الأرستقراطية ، التى أصبحت منذ فترة غير بعيدة فى حوزة الدائرة الرابعة المعروفة ، وكانت تقوم فى

حديقة كبيرة بطرف المدينة . لم يكن نوسوف يملك الحق فى دخول تلك المستشفي ، مثلما لم يملك الحق فى الكشف بالعيادة ، ولكن إذا كان قد نجح فى التسلل إلى العيادة ، فليس هناك طريق آخر سوى تلك المستشفى .

كان مضطرا إلى الجلوس ساكنا لفترة طويلة . أما العجوز التى أرسلوها إلى قسم الأمراض الباطنية ، فلم تكن تود الذهاب بأية حال من الأحوال إلى قسم الأمراض القلبية . كانت ضخمة متراخية ، برأس أشيب وصوت جاف خشن متعود على نبرة الأمر والنهى . جلست على المقعد المتحرك وهى ترفض فى إصرار بعدما فهمت المرضة المناوبة من حديث تليفونى أنهم يزعمون نقلها ليس إلى الجهة المطلوبة . المناوبة امرأة جميلة شابة ، مشدودة القامة ، مهذبة ، ومدربة فى أدب ولطف ، أوضحت وهى تنهض خارجة من خلف مكتبها تارة ، وتارة أخرى وهى تجلس أمام التليفون ، بأنه لايوجد اليوم مكان فى قسم الأمراض الباطنية ، ولا مكان واحد . وسوف يوجد مكان غدا أو بعد غد . ردت العجوز بشكل قاطع بأنه من غير الممكن ألا يوجد مكان ، عندئذ فلماذا إذن جاءوا بها اليوم ، وأنها كان من الممكن أن تأتى غدا أو بعد غد . أما الممرض ، ذلك الرجل الطويل البارد ذو الوجه النعسان ، فقد كان يهم تارة بدفع المقعد إذا ما بدا له أنهما قد توصلتا إلى اتفاق فى نهاية الأمر ، وتارة أخرى يتراجع ليتطلع إلى التلفزيون . وكان صوت التلفزيون خافتا ، ولكنهم عندما كانوا يتواثبون فيه بالميكروفون فى

أيديهم وهم يزعقون ممزقين حناجرهم ، كان الصوت يتحول على نحو ما من تلقاء نفسه إلى هدير وزمجرة .

جلس الكسى بتروفيتش فى مقعد كبير واطئ مستغرقا فى نفسه ، وشبه نائم فى حالة ضبابية . ارتفعت درجة الحرارة ثانية وجف حلقه . بدا له أن جسده كله متضعضعا بشكل مزرى ، وفوق ذلك بدأ السعال أيضا . من خلال الضباب لاحت صورة الجراح الذى أجرى له العملية فى المستشفى ، وراحت تحدق فيه. تذكر الكسى بتروفيتش نفسه على طاولة العمليات ، وبوعى تذكر بطنه الموجوع ، وكيف جثم الجراح على بطنه ، بالضبط وكأنه يدفع بعتلة أو بشئ ما من هذا القبيل أخذ يرفع ما فيها ثم سلخ جزء منه . استسلم جسده كله تحت يدى الجراح الهائلتين، ولتلك الدفعات وهو يهتز بشدة دون ألم على الاطلاق . ومن اليمين ، من مكان ما من الأعماق السحيقة ، وصله صوت طبيب التخدير ذو الصدى القوى يسأله تارة عن حالته ، وتارة أخرى يمتحنه بأسئلة فى الكلمات المتقاطعة . انفصل الجزء السفلى من جسده وغاب تماما ، وفى مقابل ذلك ظل كل شئ لسبب ما واضحا فى ذهنه .

فى النهاية نقلوا العجوز ، ولم ينتبه الكسى بتروفيتش على أى شئ وافقت ، ولكن المناوبة كانت منهكة القوى بعدها . فذهبت خلف الستارة وأسدلتها بشكل سئ وراءها ، وأمام المرآة راحت تدلك وجهها بيديها الاثنتين . جاءوا بالمقعد المتحرك ووضعوه أمام نوسوف ، دلّه أحد ما على

مكان تبديل الملابس ، ووضع له آخر الترمومتر بعد أن جلس فى المقعد برداء المرضى التيلى قصير الأكمام فوق البنطلون . مرة أخرى جلست نفس تلك المرضة خلف المكتب تسجل وتتصل بالتليفون . المصعد به مرآة ، وكان المرض المرافق لايزال بعد صبيا بشوارب قد نمت بالكاد ، أخذ طوال الوقت يمط شفته العليا أمام المرآة ، ويلمس شواربه تارة بأصابعه ، وتارة أخرى بلسانه .

كان التلفزيون مفتوحا فى عنبر لشخصين ، بنوافذ كبيرة ، وسريرين حديديين بمحاذاة الجدران . ولأنه كان يخاف التلفزيون ، فقد كان هو الشئ الوحيد الذى لاحظه قبل أى شئ آخر . من اليمين ، فى مواجهة الباب والتلفزيون ، رقد جاره على السرير فى قميص داخلى سميك أبيض ، لم ير الكسى بتروفيتش فى ذلك المساء أى شئ أكثر من ذلك . أتوا إليه فى الحال ، تقريبا ، بدورق جرافيتى به ماء أصفر اللون وأرغموه على الشرب . سأل الجار عن شئ ما ، فأجاب الكسى بتروفيتش بشئ ما من خلال عتمة الاغماء . كان اهتمامه مركزا على الدورق ، وكيف يسكب منه سائلا مقززا ، بطعم نتن ، فى بطنه . بدا التلفزيون مثل طبق يتلألأ فى خفوت ، يتوهج بألوان مترجرجة متماوجة تكاد تنسكب كسائل لزج متجلط . أفاق على ملمس الأنبوب البارد الذى نتأ من أسفل بطنه ، وكانوا قد غرسوه فيه بقوة شديدة . على يمينه ، رأى قامة منحنية بشكل غريب جدا من التلفزيون . انتشرت رائحة القهوة . «ماذا هناك؟» – سأل الكسى بتروفيتش . رد الصوت : «يبدو

أن هناك شيئا غير صحيح ، غدا يجب إعادة الكرة . ولكن ما هو الشئ غير الصحيح ، وهل هذا حسن أم سئ ، فلم تكن هناك قوة على الاستفسار . وبآخر ماتبقى لديه من قوة نهض من مرقده ، أزال بالمنديل الورقى الذى أعطوه له الفازلين من فوق بطنه ، ثم اتجه نحو الباب. «ليس هناك ، ليس هناك!» – صاح به بصوت عال مضاعف . ولكن كيف خرج «إلى هناك» ، لا يذكر .

انتزعوه ، فى المساء ، من غيبوبته مرتين لكى يعطوه الحقن . وبينما راح يُجَدِّف معتمدا على ركبته ويديه ، انقلب على بطنه الذى بقبق بداخله شئ ما ، لدرجة أنه شعر بألم حاد خاطف ، ثم استغرق مرة أخرى فى غيبوبة . سطع أمامه شئ ما لفترات زمنية متقطعة ، بقع ما كريهة تشبه قناديل البحر على الشاشة وعلى صور الأشعة تستعد للحركة ... وبالقرب منه تماما ، راح صوت هادر ينقر ويدق .

* * *

شرشرت قطرات ، من جراء ذوبان الثلج ، على حافة النافذة الصفيح . سقط الثلج فى الليل ، ذاب على الفور ، ومن كوة النافذة أعلى بطارية التدفئة هبت رطوبة . فى النافذة ضوء ردئ معتم لايمكن من خلاله تحديد هل هذه هى بداية النهار أم أنه بدأ فى الانتهاء . كانت النافذة تطل على الغابة التى امتدت فى ارتفاع وكثافة بأغصان سوداء

متشابكة لأشجار عارية . صاحت الغربان بصوت عال فى تهتهة ، راحت سيارات فى مكان ما قريب تبتعد وهى تنخر وتغط . تعالت أصوات جهورية لإمرأتين ...

على الكوميدينو استقر طبق فيه بقايا كُبيبة ، ما كاد الكسى بتروفيتش ينظر إليه حتى شعر بالغثيان . لم تكن لديه رغبة فى الأكل ، ولكن لو كوب من الشاى الساخن ، من أجل إيقاظ ما تبقى لديه من قوة ، لكان غير مضر الآن. نظر إلى الساعة : قاربت العاشرة . كان التلفزيون مفتوحا ، وأحد هؤلاء الشبان ، الذين ما كادوا يفقسون من البيضة ، والذين ينطون الآن فى العيون والآذان من كل الثقوب التى تبث الصوت أو الصورة ، ومن كل أعمدة الصحف ، انفجر عبر الشاشة بصوت عندليب يغنى عن محاسن الخصخصة ، وهو يصأصأ فى أنوثة محركا كتفيه المتهدلتين فى تصعير . كان الجار يستمع باهتمام وهو فى سريره . انقطع عن التلفزيون على صوت تحرك الكسى بتروفيتش ، استخبر عن الصحة ، وبينما كان يعود إلى وضعه السابق ، قال بدهشة:

– إلى أى شئ وصل حال الرجال الأذكياء !

بالنسبة إلى الكسى بتروفيتش بدا أن هذا الكلام لو كان بدون سخرية ، فهو أمر غير جائز ، وردا على ذلك ابتسم مؤكدا وبشكل ضعيف .

بعد ذلك أخذ يتأمل جاره في تمعن . لم تكن هناك ضرورة لالقاء الأسئلة عليه ، فقد راح يحكي بنفسه . كان غير طويل القامة ، مكتنز البدن ، من ذلك النوع من الناس النشطين على الدوام ، الذين يأكلون كثيرا ، ويشربون كثيرا دون أن يعانوا من تأنيب الضمير حيث يمررون كل شئ بداخلهم مثلما يمررون الفضلات العضوية . اسمه انطون اليتش، بنى مستقبله بنفسه من دون مساعدة خارجية ، وترقى فى عمله من مهندس ورئيس قسم إلى مدير مؤسسة بناء ضخمة . فى السنة الرابعة على المعاش حاليا . وللعام الرابع يدور على الأطباء بحصوات فى الكلى . إنسان غير ضعيف الارادة ، وبعد إحالته على المعاش ، وبعد نوبات الألم القاسية التى تتولى فجأة على الدوام ، صار أكثر سرعة للغضب ، وأكثر انعداما للثقة بنفسه ، وأكثر عنادا وتصلبا فى الرأى . رفض إجراء العملية طوال ثلاث سنوات ، ظل يتتبع الوصفات العلاجية الطبية الكثيرة بالوسائل الجديدة دون أسف على النقود . ولكنه ... هو نفسه كان قويا ، ومن ثم ربى حصوة قوية مثل الزلطة فى كليته ، لم تستجب للمحاليل الفلبينية والايطالية الخصوصية ، ولا للقصف بالليزر . وها هو ... قد استسلم . من أجل العملية ضحى بالمؤسسة التى كان يديرها ، ولكن لم يبقى أمامه فى ذلك الوضع الا أن يدفع بعد ذلك عن كل يوم من وجوده بالمستشفى ، الأمر الذى دفعه إلى عد الأيام وحسابها ليس فقط بسبب الاشتياق إلى بيته ، وهو نفس الأمر الذى جعله يصاب بالقلق ويستحث نفسه على الخروج بسرعة . ومع أنه

استطاع أن يقلق نفسه ، ويتوتر كما يشاء ، ففى المستشفى كان نظامها الخاص ، بل وربما تقديراتها الخاصة أيضا ، لم يكن هناك أى شئ متوقف عليه . وكان لزاما عليه فى السنوات الأخيرة أن يكون قد تعود على أن كل شئ قد صار يتوقف عليه بصورة أقل فأقل . ورغم ذلك فقد كان هناك تناقضا ما لايستطيع أن يدركه ، تناقضا ظاهريا ما معقدا : ففى مصلحة صحته الشخصية لم يكن من الضرورى اختصار فترة وجوده في المستشفى . ولكن بمجرد استغراقه فى الأفكار عن إمكانيته فى اجتياز تلك الرقدة غير المحددة حتى ذهبت جميع الأفكار العاقلة إلى الشيطان .

أصاب الكسى بتروفيتش سعال أخذ يشتد ويقوى . انخفضت درجة حرارته ، ولكن ذلك كان فى أوقات الصباح ، ثم ترتفع قرب حلول المساء . نهض من الفراش بصعوبة . أخرج ، من الحقيبة ، السخان والكوب المعدنى القديم اللذين لم يفترق عنهما فى أية غيبة عن البيت . أخذ يجرع ويجرع ، كوبا وراء الآخر ، من الشاى الثقيل الحارق . بعد ذلك داهمه الطبيب الذى كان فى جولة مع الممرضة – فى معطف أبيض وطاقية ، مهندم ، غير طويل القامة ، وغير ثرثار ، بعيون حزينة طيبة . توقف عند الكسى بتروفيتش ، وبينما راح يستمع إلى الممرضة ، أخذ يمر بيد صغيرة فى حرص ، تفاديا للألم ، حول الخياطة ، وسأل الكسى بتروفيتش كيف نام .

– السعال – قال الكسى بتروفيتش ، وهو يسعل ثانية – يرتد إلى هناك – وأشار ناحية فخذه .

– السعال أمره بسيط ، سيمر – رد الطبيب مستغرقا فى التفكير ، ثم اتجه إلى الباب .

– – ولكن متى بالنسبة لى يا فاديم سيرجييتش؟ – هب الجار – متى تتولون أمرى ؟

– من الواضح أنكم غير جاهزين بعد ...

– أنا جاهز – قاطع الجار .

– لا تتعجلوا – قال الطبيب من عند الباب – انهوا فترة المراقبة أولا ، وسوف نفحصكم مرة أخرى كما ينبغى . عندئذ ...

خرج ، وبقيت الممرضة التى انحنت على منضدة الجار ، وكتبت ورقة – إلى أين ، وإلى من يذهب لاجراء التحاليل .

فى المستشفى ، حيث رقد الكسى بتروفيتش فى السابق ، كانت الممرضات فتيات شابات ضجوجات فظات يصرخن فى المسنين ، ومع ذلك فقد كن نشيطات وماهرات . بيد أن المرضى هناك كانوا أيضا أعنف وأكثر عصبية ، وعددهم أكثر بنصف مرة . هنا ، أمس واليوم ، المرضات مسنات ، لطيفات بدون تصنع ، هادئات ، لا يفتهن أى شئ .

– بالمناسبة ، اشربوا – قيل ذلك لالكسى بتروفيتش – بعد ساعة سنذهب معا إلى الأشعة ما فوق الصوتية . اشربوا أكثر .

– كنتُ هناك فى الليل .

– فى الليل ، وفى النهـار ، وفى الصـبـاح ، وفى المسـاء – ردت المرضة بغناء وهـى تقلب الكسى بتروفيـتش فجـأة على جانبه بيدين قويتين . وبعدما خبطته على مؤخرته ، غرست الإبرة فى الحـال دون أن تعطيه الفرصـة للاسـتعداد ، وبالتالى لم تعطه الفرصة للاحساس بالألم .

ذهب الجار دون أن يغلق التلفزيون كـعادته . ومـا أن لم يجـد هذا إهتمام ، حتى راح يجاهد فى الحصول عليه ، وأخذ يقوم أمام الكسى بتروفيتش بتلك الحيل والألاعيب مما جعل الكسى بتروفيتش ينكمش من الرعب . ومع ذلك فلم تكن لدى الكسى بتروفيتش رغبة فى النهوض لرفض خدمـاته : هدأ السـعـال تحت تأثير الشـاى السـاخن ، ولكن النهوض أيضا سوف ينشّطه . طارت على الكسى بتروفيتش من أعماق الشاشة ، كما لو كان من نفق ، طيور كاسرة هائلة الحجم ، واحدة تلو الأخرى : فتيات عاريات بأرجل مفتوحة يصحن فى اللحظة الأخيرة بنهم ورغبة بكلمة إعلانية ما خادعة لها شكل .... يا إلهى ، اغفر لى وارحمنى ! حـتى رؤية ذلك على إنفـراد كـانت شـيـئـا بذيئـا ، ولم يكن من الممكن الاسـتدارة إلى أية جـهة . كـانت الفتـيات يندفعن فى تحليقات أرضـيـة سريعة من الدولاب المطلى باللون البنى الغامق ، الواقف خلف سـرير الجار ، ومن المرآة ذات المصاريع القائمة وراء سرير الكسى بتروفيتش . ثم تغيرت الفـقرة الاعـلانية : انتظمت الفـتيـات اللاتى رحن يهـبطن فى

صف واحد ، وهن يرجرجن مفاتنهن على أصوات الأجراس ، ويصلصلن بأسنانهن فى وقت واحد مع ابتسامات ساطعة وقد قبضن أثناء هبوطهن على علب ما ، وأخذن يدلكن أنفسهن فى جنون بدهان ما . «يا إلهى! – راح الكسى بتروفيتش يبتهل – وهذا ... وهذا ولكنه على أية حال لم يتمكن من اكتشاف «ما هذا» .

عاد الجار بالصحف . اتضح أنهم يبيعونها على الطابق الأول . فى تلك اللحظة حضروا من أجل الكسى بتروفيتش ، وكان عليه ، شاء أم لم يشأ ، أن ينهض . سار يجر قدمية خلف الممرضة التى كانت تركض مبتعدة عنه ، ثم تتوقف فى انتظاره قبل كل انعطافة . دخلا نفس الحجرة التى دخلها فى الليل . ولكن الكسى بتروفيتش لم يتذكر على الاطلاق أين كان ذلك ، ولم يتذكر أيضا المصعد الذى كان عليه أن يصعد فيه ، وفقط عندما انطرح على الفراش رافعا عينيه نحو السقف ، عرف الحجرة .

ومع ذلك ، ففى طريق العودة بدون الممرضة ، راح يسأل مرة أخرى عن الطريق إلى قسمه .

كان جاره نائما ، والصحف متناثرة فوق البطانية . أما ذلك «الشرير» فقد أجلس معبودى شاشته فى حلقة خلف طاولة صحفية واطئة ، وراح يدق فى العقول نفس الأغنية التى تتردد فى الخارج عن الهناء والبحبوحة واليسر . وكان كل ذلك بأصوات تمثيلية مُدَّعيَة مثل مجموعة من الملتحين الذين يتمتمون فى سرعة وتصنع . بدا لالكسى

بتروفيتش أن ذلك فيلم كارتون ، فضغط بارتياح شديد على زر الإغلاق ، وراح ينظر بمتعة كبيرة كيف اندفع الملتحون مبتعدين فى سرعة وهم يتحولون إلى دُمْى مما سَلاّه وهون عليه .

تلاشى ، تماما ، نهار مارس المتجهم . قبعت الغابة ، من خلف النافذة ، تحت أحزان متجمدة . أصبح صعبا ، فى ذلك التشابك ، تمييز أين أغصان أشجار الزيزفون السوداء ، وأين أشجار الاسفندان ، ذاب الثلج الليلى ، ظهرت الأرض مبللة حزينة فى فرشة عارية من الأوراق السمراء الداكنة ، وتهدلت السماء عند الأفق ببقع مليئة بالماء . أما طريق التنزه الخرسانى الصغير الذى يقود إلى داخل الغابة فقد كان خاليا .

استلقى الكسى بتروفيتش مرة ثانية . بدأ التصدع والألم ليس فقط فى مكان الزجوع ، وإنما فى الجسد كله . صارعته سنة نعاس ، ولكن السعال لم يمكنه من النوم . تناهى إليه صوت المرضة من الممر ، وكانت طاولتها فى مقابل الباب تقريبا . ومن وقت لآخر كان يصله وقع خطوات : مسرعة ، بكعوب مطرقعة – لطاقم المرضات ، وخفيفة بطيئة – للمرضى . دوى ، بصوت مكتوم ، هدير راديو بعيد : كل ذلك كان بمفعول المخدر .

جاءوا بقطّارة على حامل عال . مد الكسى بتروفيتش يده بشكل يحفظه عن ظهر قلب ، ففى جميع المستشفيات سمع نفس الشئ «لنعمل بقبضتنا» كى نستحث الدم ، أخذ يطبق كفه ويبسطها إلى أن شعر

بالعاصبة الضاغطة على يده من أعلى المرفق تتوتر ، ولم يشعر كيف انزلقت الإبرة داخل الوريد . وفى شبه نعاس رأى على المنضدة الصغيرة ، باستثناء القارورة المثبتة فى الحامل ، قارورتين مُكرّشتين يجب ضخهما فى الوريد . وهذا يستغرق حوالى الساعتين .

شعر ببرودة . طلب من الممرضة أن تغطيه بأى شئ . راح يستدفئ تحت البطانية التى ألقيت عليه . اختبأ متبرما ، وفى نفس الوقت بتدلل وهو يتوجع متعزيا . تصاعد الألم أيضا فى فخذه ، أخذ ينتشر فى بطء. «لا يهم ، لا يهم» - مرة أخرى فكر الكسى بتروفيتش فى تشتت ، وظهرت أمامه وجوه يعرفها تسمرت فى حالة توقع : أما مودعة اياه ، أو مستقبلة .

اقتربت الممرضة ، فأرغم نفسه على فتح عينيه . نظر شذرا إلى القطّارة . سال السائل الأصفر ، سار بطول الخرطوم الشفاف ، راح ينكسب فى الوريد بذراعه الخامدة الممدودة . لم يشعر بحضور أى شئ غير عادى أو غريب . وغاص ثانية ، فى ضعف لذيذ ، فى الدفء .

لسبب ما كان عليه أن يسترد وعيه . فتح عينيه . وقف الطبيب ، فى العتمة ، أمامه وقد تميّز في وضوح بمعطفه الأبيض وطاقيته .

- ماذا ، يا دكتور ، كيف الحال هناك ... متى العملية ؟ - سأل الكسى بتروفيتش محاولا ألا يخرج صوته ضعيفا .

– سنرى ، سوف نرى – بدا أنه قد حضر خصيصا لكى يتفحص الكسى بتروفيتش . وبعدما نظر اليه ، دون أن يلمسه ، انصرف . واندفع الكسى بتروفيتش الهادئ المطمئن ، الذى لم يكن عليه أن ينهض، بسعادة من الضفة الصلبة القاسية حيث رسا قليلا ، وراح يسبح مثل الضفدع البشرى فى بطء وفتور ، يسبح مرة أخرى فى الأعماق اللذيذة.

* * *

فى اليوم التالى منعوا نوسوف من النهوض . جاءوا بالطعام على عربة يد مقعقعة ، ما كاد يتناول منه قليلا حتى تركه من شدة الإعياء ، وقد شعر كيف يستقر الطعام فى المعدة بشكل متعب وغير مريح . طلع النهار ، مرة أخرى ، مكفهرا ورطبا . تسرب إلى النافذة ضوء رمادى قاس . قفز شئ ما فى موضع الألم ، من نهايته إلى نهايته ، وأخذ يدق فى وجع . سرى مفعول الدواء على شئ واحد : أصبح السعال أقل ، وأخذ يتنحنح بدون جهد أو توتر ، ومن ثم استطاع الكسى بتروفيتش أن ينام أكثر . كان يسقط فى النوم مباشرة ، بمجرد أن يغمض عينيه ، ولكن هل كان ذلك نوم ، من الصعب أن نقول . فكأنه كان يغوص فى هوة واحدة لا تتغير ، بمياه غير نقية وهواء راكدا . لم تكن حالته فيها سيئة أو جيدة ، كانت تسحبه إلى داخلها وتضبب وعيه . جاءوا بالحقن والأقراص والأجهزة – نفّذ كل ما طُلِب منه بصورة ميكانيكية ، تطلع بلا

مـعنى ، لوهلة ، إلى القـامـات المهـتـزة فى التلفزيون ، ورغمـا عنه أغلق عينيه ثانية .

انتـابتـه من وقت إلى آخـر تلك الصـحـوات التى كـانت تعـيـده إلى الحياة . تذكّر ، فى واحدة منها ، أن زوجتـه قلقة لا تستقر فى مكان ، ولن يسمـحـوا لها بدخول تلك المستشفى ، فى ظل نظامـها هذا ، بدون تصريح ؛ لذا طلب من جاره أن يتصل بزوجته ويخبرها بأنه يقول لها أن التـصريح غدا . يجب أن يكون الحال فى الغد ، أفضل . طلب ذلك من جاره ، ووقف هذا الأخير مستعدا ، إلا أن الكسى بتروفيتش لم يتمكن من العثـور فى ذاكرته على رقم التليفون . عصت عليه الذاكرة تماما . استعصى عليه كل شئ . وفى النهاية تذكر عندما ولج إلى الذاكرة من ناحية أخرى : تخيل كيف كتبتْ الأعداد على البطاقة الصفراء الصغيرة الملصقة على جهاز التلفزيون . وبعد حصوله على النتيجة ، تيقظ تماما .

غمغم الجار بصورة غير مفهومة وهو يتأمل نفسه فى المرآة ، ثم خرج .

الذهاب لاجراء عملية جراحية ، خاصة لأول مرة ، أمر قاس . عاش الانسان كما خلقه الخالق ، وفجأة يحدث شئ ما يتطلب تدخلا سريعا ، وإصلاحا . فى ذلك يوجد شئ ما غير طبيعى ، فظ ، قهرى . وخصوصا الآن ، عندما صاروا يغيّرون الأعضاء . كل ما هو إلهى رائع ووحيد وليس له بديل انحدر إلى مستوى الميكانيكى والتركيبى . يمكن

استئصال المرارة ، إزالة كلية غير نافعة ، رئة ، تقصير أو إطالة – مثل الأنابيب – طرق الاخراج والتصريف ، استئصال من مكان وترقيع فى مكان آخر ، خياطة يد أو قدم مقطوعة ، رتق المثانة من الزائدة الدودية. لقد وصل علم الاصلاح والترميم إلى نتائج لم يرها أحد من قبل ، وما يزال يتطور ويكتمل أكثر ، وأكثر . عندما تتدخل الصنعة فى ربانية الوعاء البشرى وتتجادل معه ، تصير هى ذاتها بالتدريج إلهية وتطالب ، زاعمة ، بالدور الأعلى . إنقاذ الحياة يبرر كل شئ – طالما ما زال الانسان حيا . إلا أن كل تدخل إنقاذى من ذلك النوع تترسب فيه ، بالضرورة ، وتبقى حِسْبَة ما خاصة ... فلمن ستُقَدّم هذه الحسبة بعد ذلك ؟ لقد اجتاز الكسى بتروفيتش طاولة العمليات أربع مرات . يعيش على الترميم مثل جهاز تسخين بمضخة ، ولكن بعد كل عملية كان ينمو بداخله ، دون إرادة ، هلع من شئ ما وكأنه غدر جديد ... لم يستطع تحديد الشئ المغدور ، أو ما كان يثير رعبه بالذات ، ومع ذلك لم يداخله إحساس بالاستهتار أبدا .

عاد الجار ، مخشخشا بالصحف ، دون أن يتحدث بأية كلمة ، وانشغل بترتيبها .

– هل نسيتمونى ، يا أنطون اليتش ؟ – سأل نوسوف .

– أقول بصراحة ، لم أنس – أجاب الجار بحدة فجائية ، ناطقا بوضوح وبالضبط ، وفى حالة إعلاء للمبادئ ، ثم اختلج وجهه

– لم أود تلطيخ يدىّ ، هه .

– كيف ذلك ؟ – لم يفهم الكسى بتروفيتش – ما هذا الذى تقولونه؟

– لا يوجد فى صحفكم سوى بريباجندا عدائية . شر فقط ، هه اقرأوا صحفى لو أردتم .

– بالطبع ، ومن الممكن صحفكم أيضا – رد الكسى بتروفيتش فى ضيق متأملا جاره بألم وخجل .

وفجأة انتابته هو الآخر حالة ثورة عاجزة يرثى لها – وهل حقا هناك عندكم – أشار بيد مرتعشة نحو التلفزيون – لا توجد بروباجندا عدائية؟ ليس حضاً على الزنا ؟ ليس استغفالاً ؟

– لا ، ولكن حتى إذا كان الأمر كذلك ؟ فاستغفال الحمقى هو الذى يصنع منهم عقلاء .

أليست هذه قسوة زائدة من قبلكم ؟ وأيضا مجازفة ، وربما ....

– أنا لم أقصد شخصكم أنتم .

– شكرا . ولكن إذا لم أكن أنا وأنتم فى عداد هؤلاء الحمقى ، لأعطيتم هذا – أومأ الكسى بتروفيتش إلى التلفزيون بكراهية – الشئ العجيب فترة للراحة . فلا أحد يعرف كيف يؤثر هذا على العقلاء ...

– تكلموا ، إذا كان يزعجكم . لماذا لا تقولون ؟ وسنتفق .

«هل حقا يصيبه الجبن هكذا قبل العملية؟ – أغلق الكسى بتروفيتش عينيه مستغرقا فى التفكير – ولكن فى هذه الحالة ، يبدو لى ،

أن الأمر يجب أن يكون على نحو معاكس بالضرورة» . وراح يتذكر ما كان يحس به هو ذاته قبل العملية . كان من الممكن ألا يتذكر أيضا ذلك الاغتمام ... والتحسر على النفس ، وفى نفس الوقت الاهتمام الخاص والزائد بكل ما يحيط ، وكأنك تحاول التشبث بشئ ما فى قوة ، والاهتمام بالناس والتصالح معهم ، والاستعداد لتقديم العون والمساعدة. عادة ما يكون ذلك بشكل حزين ، ولسبب ما فى غاية البساطة ! فلم يعد هناك أى شئ بعد الآن يتوقف عليك . حيث أنك تكون ، كما لم تكن أبدا ، حرا طليقا ، متوجها إلى حيث يعيش الخلود . ولكن ذلك يتوقف ، حتى قبل العملية وقبل الجرّاح ، على نظرة الناس إليك ، تلك التى تتجسد فى صورة غير مادية ، مثل الظل ، للملاك الحارس الذى يقف غير بعيد عنك . ففى هذه الحالة لايجوز الأمر بدون ملاك حارس . قام الكسى بتروفيتش باجراء عملية التفكير والتأمل على نفسه . والآن ، أين ملاكه الحارس ، ملاك الكسى بتروفيتش ، ألم يتعب بعد من مرافقته؟

ذات مرة بعد إجراء إحدى العمليات ، ربما الثانية ،التى كان من الممكن أن تنتهى بصورة مؤسفة ، رأى الكسى بتروفيتش حلما . كان قد عاد إلى وعيه ، بعد المخدر ، فى غرفة الانعاش . وكان السرير لسبب ما مرفوعا إلى أعلى ، على مستوى الطاولة الواقفة إلى جواره . وعلى غير مبعدة منه وقفت امرأة تصرخ وتئن ، والخطوات المسرعة تقترب وتبتعد . لم يكن الجو خانقا ، ولكن الهواء بدا وكأنه قد أُعِد خصيصا بهذه الدرجة من الجفاف والوخز . لم يكن من الممكن أن يستيقظ الكسى

بتروفيتش لو لم تحركه المرضة وتخبطه على خديه . لسبب ما كان الأمر يتطلب ألا ينام . أفاق فى حالة من القشعريرة الفظيعة ، كان جسده يهتز اهتزازا شديدا ، ودون أن يسمع صوته طلب أن يغطوه . لم تزول القشعريرة . «لا تناموا ، لا تناموا» – كررت المرضة وهى تتناول يده ممسدة إياها عند المرفق لكى تعثر على الوريد . كانت لديه رغبة فى مساعدتها ، ولكن جفنيه اللذين ارتفعا بالكاد ويثقل فوق طاقته راحا ينغلقان مرة وراء الأخرى .

عندئذ فقط رأى ذلك الحلم . قاعة هائلة بدون نوافذ وقد أضيئت على نحو شديد السطوع ، وجدران معلقة عليها لوحات فى إطارات خفيفة مستطيلة ، على اللوحات شئ ما تجريدى ، قامات غير معتدلة ، خطوط ضعيفة متقطعة ومهشمة . وهو يبحث عن مخرج ولايمكنه العثور عليه . راح يلف ويدور ، مرة وراء الأخرى ، فى القاعة رافعا جميع اللوحات واحدة بعد الثانية حيث كان من الممكن أن يكون خلفها نافذة أو فتحة . ولاشئ سوى نفس ذلك الجدار الأبيض الأصم . يبدأ البكاء فى يأس مدركا أنه من المستحيل أن يبقى هنا . أخذ يركض ، ويركض ، وقد فقد عقله تماما ، بينما صار الضوء أكثر لمعانا وسطوعا ... ولم يتبق سوى لحظة حتى يحرقه ويحوله إلى رماد .

تمكنت المرضة بالكاد من إفاقته . واصلت الدموع انهمارها ، طلب من المرضة ألا تبتعد وهو يتشبث بيدها مثل طفل صغير .

«لا تناموا – تضرعتْ إليه – جربوا ألا تغمضوا عينيكم . تماسكوا» .
وطوال عشرين عاما بعد ذلك كلما تذكر الكسى بتروفيتش ذلك الحدث عندما تمكن فى جدية وعزم من إظهار إرادته ، كان يبدأ الحكى قبل كل شئ من تلك القوة الخارقة التى حشدها آنئذ وهو فى حالة شبة الغيبوبة من أجل ألا ينزلق فى حالة فقدان الوعى .

منذ ذلك الحين وهو يخشى تكرار ذلك الحلم . لكنه لم يكن حلما كما بدا له ، وإنما شئ ما مختلف ووداعى ، ومن الضرورى أن يعاوده فى وقت ما . كان يتذكر ، بكل ذلك الوضوح والدقة ، تلك القاعة الصماء الغارقة فى الضوء الكهربائى الساطع الذى لايحتمل ، ويتذكر نفسه بالدموع المنهمرة على وجهه فى سرعة ، وأن ذلك من الضرورى أن يكون فى مكان ما على غير مبعدة منه . وفى المرة الأخيرة بالمستشفى ، عندما عاد إلى وعيه بسهولة بعد تخدير خفيف ، فرح أكثر من المرات السابقة ، ربما لأنه كان يثق فى قدرته بشكل أقل . وفرح أولا وأخيرا لنفس ذلك الشئ دون أن يعيه ، وهو أنه قد عاد بعد أن اجتاز القاعة المعروفة .

ناوبت الممرضة فى الليالى التالية على التوالى . كانت تقوم أيضا بعمل «الدادة» . اليوم تأملها الكسى بتروفيتش على نحو أفضل : وجه طيب نحيف ومسحوب ، بعينين صافيتين هادئتين فى صبر وتسامح معتادتين على المعاناة والألم ، بل وأكثر قليلا من اللازم ، وبحركة مهتزة مترددة لإنسان قد تجاوز أفضل فترات حياته . انحنت على نحو ما

مضعضع ، جرت بالمسحة على الأرض فى حركات مقيدة محتشمة ، وكلما كانت تنتصب ، كانت تصيخ السمع إلى الأصوات فى الممر ، ومن الملاحظ أنها كانت تنحنى إلى الأمام قليلا .

- ما اسمكم؟ - سأل الكسى بتروفيتش فى بطء ، وهو يراقب فى ألم كيف تلوى وجهها وتدفسه حتى تمسح العرق فى الشال الموجود عليها .

- اسمى تاتيانا فاسيليفنا . أربعون سنة خدمة . تقريبا عشرون سنة هنا - أجابت ضاحكة من نفسها ، وفى نفس الوقت فى فخر ودون أن تترك العمل .

- ولكن لماذا أنتم هنا لليوم التالى على التوالى بدون راحة ؟

- لا أحب الراحة . كنت أحبها فى شبابى ، مثل كل الشباب ، والآن هذا هو الحال بعد أن عشت فى المستشفى - قالت وهى تثير ضجة بتحريك المقاعد ، وفى نفس الوقت متطلعة إلى الكسى بتروفيتش بابتسامة ساخرة موجهة إلى نفسها .

- الراتب غير كاف ؟ - تدخل الجار - من الغير الممكن أن يكون راتبكم هنا قليلا .

- لم يكن أبداً كبيرا لدى الممرضات . لا فى هذه المستشفى ولا فى غيرها ، اشتغلت فى مستشفى القضاء ، وفى مستشفى المعهد. الفرق ليس كبيرا .

– هناك ، على الأقل ، زوج ؟ – أهتم الجار

– لا . مات .

– هذا هو الحال فى كل مكان – أجْمَلَ الجار فى حزن وهو يلتفت إلى الكسى بتروفيتش – لايوجد زوج ، ولكن الزوجة موجودة . علم الديموجرافيا يتحقق كله هنا .

ألقت عليه تاتيانا فاسيليفنا نظرة خاطفة .

– ويوجد أيضا ثلاثة أحفاد – قالت بدون تعبيرات – ولدي ابنتى لايوجد أيضا زوج .

– ومن الضرورى مساعدتهم ؟

– ضرورى .

– الأمر سيان ، ففى هذه المستشفى أهون .

– هنا أسهل لأن المرضى أقل – راحت الممرضة توضح – ولكن المريض هنا باثنين . متقلبو الأطوار جدا ، متعنتون وعصبيون . كم سكبت هنا من دموع حتى تعلمت ضبط النفس ...

– صنف من البشر – أومأ الجار العارف برأسه – نوعية . ما أكثر ما يستهزئون بالناس .

– نعم – وافقت الممرضة التى بدأت تتمهل – إلا أنهم يستهزئون الآن أكثر . يأتى أناس غاية فى الفظاظة – لم ترغب أكثر من

ذلك فى ذكر ما كان يقال لها ، وراحت تعمل من جديد . ولكنها ما لبثت أن تركت العمل - ولكن أتعرفون - توجهت إلى الكسى بتروفيتش - ربما لن يُجروا لكم عملية . الخياطة عندكم فى حالة جيدة ؛ ولكنه الورم الالتهابى الكبير الذى نضج دما كثيرا فى الداخل . إنهم لم يعالجونكم حتى النهاية . لو أمكن تصريف الورم ... إن فاديم سيرجييفتش قد طلب ... - ذكرت الدواء ولكن بتسمية عويصة حتى أن نوسوف لم يتمكن من الاحتفاظ بها فى ذاكرته - لو يرسلوا هذا الدواء ، فسوف يكون الحظ حليفكم .

بابتسامة متوقّعة نظرت إلى الكسى بتروفيتش ، ولكنه فى المقابل لم يتمكن من إظهار سروره ، وكان الأمر على نحو ما بالنسبة له سيان . ومع ذلك فقد رأى بوضوح فى مكان ما هناك فى أعماق جسده كيف أن الخياطة التى تعرضت للتمزق ، والحواف المتهدبة الدامية للأنسجة قد تهدلت وراحت تهتز أثناء الحركة ، وفى لحظة واحدة تحولت بمعجزة إلى موضع ممتقع قليلا بخياطة متسقة مرتبة تكاد تكون من جراء تدخل قوة غريبة .

بتلك الاستكانة السعيدة أسلم نفسه إلى حالة من الضعف إلى أن نام بعد نصف ساعة . وقبل استغراقه فى النوم سمع ، وهو مغمض العينين ، صوت جاره :

- ولكن أين كنتم تعملون ؟

– فى وزارة الغابات .

– أعشق الغابات – وصلت إلى أسماعه . كانت كلمات جديرة رائعة ، وكان من الممكن أن يودع الانسان الحياة بها .

* * *

انقضى النصف الثانى كله من ذلك اليوم فى نوم متقطع ، لزج وخانق ، اقتلع الكسى بتروفيتش نفسه منه ، فقط ، عندما كاد يختنق تماما . وبمجرد أن انتزع نفسه تذكر على الفور الخياطة التى تقوم بوظيفتها بشكل جيد ، تَدَفّأ وتنشّط قليلا بفضل الحالة الجيدة ، مد يده إلى الكوب المليئ بالماء ، ولكن لم تكن هناك قدرة على النهوض وعمل الشاى . أهمل وجبة العشاء وقد فاحت رائحة ماسخة لعصيدة الحنطة السوداء من الطبق المغطى على المائدة الصغيرة انقلبت العتمة إلى ضوء كهربائى ، ووضعت الحقن ممرضة ثالثة جديدة بوجه رفيع حاد مثل الطائر ، وشعر أسود مفرود على كتفيها المرتفعتين العاليتين ، وصوت قوقازى حاد . الجار يدخل أحيانا ، ويخرج فى أحيان أخرى بعد أن يغير الأصوات فى التلفزيون ويثير صرير السرير وهو يزفر . قبل الاغلاق مر الطبيب المناوب ، ذلك الشاب الطويل جدا والذى يحنى رأسه الصغير . ارتفعت درجة حرارة الكسى بتروفيتش مرة أخرى ، ورأى المقبلين بصورة مشوشة فى سراب مرتعش معاكس للحائط الأبيض ، ثم استغرق فى النوم ثانية .

استيقظ فى الليل ، قبل ساعة الايقاظ بكثير ، موقظا القسم كله . استيقظ بإحساس أنه قد نام نوما كافيا . كانت الوسادة مبللة ، والقميص أيضا . كان قد التصق ، فى حالة الحمى والاغماء ، بالسرير بشكل محكم ، لدرجة أنه سحب خلفه الملاءة أثناء حركته . وبمجرد أن عثر الكسى بتروفيتش على المنشفة فوق مسند السرير حتى فردها على ظهره وأسدل طرفيها على صدرة وعقدهما ، ثم نزع القميص المبلل عن جسده ، وقلب الوسادة . خلف النافذة ضجت رياح مقلقة ، وكلما توترت واشتدت فى هبات عاصفة مُصَفِّرة ، سقط شئ ما فى مكان ما بصوت هادر مدو ، وعلا صرير الأشجار فى يأس ، وخشخشت الأغصان العارية المرتفعة . تأرجحت المصابيح الكهربائية على الحوامل ، وتأرجح الضوء المنثور من النافذة وتحرك سريعا فى الغرفة . أخذ الجار يُشَخِّر بصوت مُجْهَد وغليظ وهو يدحرج فى حلقه قرقعات مدوية كل دفعة منها تنتهى بحركة ناسور كما عند الطفل الوليد .

كل شئ كان مضطربا – الرياج التى تئز بحنق ، والضوء المتوعد فى إصرار ، المضطرب الذى يتواثب على الجدار ، والشخير العالى جدا ، وذلك الناسور الساخر . استلقى الكسى بتروفيتش ، أخذ ينصت وهو يمتلئ ويمتلئ بكل ما حوله من أصوات راحت تتسع وتمتد وتنسكب بعمق عبر المسافات ، وهى الآن ليست ضجيجا ، وإنما عذابا ومعاناة فى حاجة إلى قرار ما .

وفجأة ظهر صوت آخر – جرس متواصل متعنت فى الممر . لم يكن صوت جرس التليفون ، وإنما صوتا عاليا لا ينقطع ، مثل الصفارة . تناهت إلى أسماعه أصوات خطوات راكضة ، سكن الجرس ، وخيم الصمت لعدة دقائق فى الممر – وفجأة علت مرة أخرى خطوات مسرعة ، وأصوات فزعة تتحدث فى التليفون وأصوات قصيرة متوترة خلف الباب . نهض الكسى بتروفيتش على كوعيه وراح ينظر من الباب : شئ ما خطير قد حدث . ساد فى الممر هرج ومرج ، كانوا يركضون من هذه الناحية ومن تلك . يدفعون بتعجل عربة متحركة مقرقعة ، وطلبوا بالتليفون العثور فورا على فاسيلى ستيبانوفيتش ما . كان موضع المرضة قريبا ، فراحت صرخاتها المبحوحة تظهر تارة ، وتختفى تارة . بعد ذلك ابتعد كل شئ ناحية اليسار ، فى عمق الممر الطويل . ران الهدوء طويلا ، بينما الرياح وحدها كانت تقرع ، وتقرع فى عناد . وبحزن شديد ، متوتر ومرعوب ، فى نفسه وعلى نفسه – على الانسان بشكل عام ، راح الكسى بتروفيتش ينتظر . وفجأة ظهرت حركة من جهة اليسار ، موكب صامت ، عدة أقدام – مرة واحدة – تدفع نقالة ثقيلة تفخ عجلاتها على الأرض . سرى الفحيح بجواره ، واتجه صوب المصعد ثم اختفى . والآن ، بدون استعجال ، راحت خطوات المرافقين المتبقين تتباعد فى هدوء وتتابع ، ثم تبعتها خطوات لشخص آخر فى المؤخرة .

أمتد الليل . لم يأت فى ذهن الكسى بتروفيتش أن ينظر ولو مرة واحدة فى ساعته : كأن الزمن قد توقف : كان طوال الوقت يستمع لشئ

مـا ، ينتظر صـوتا مـا نهـائيا وقـاطعـا يكاد يكون ، علـى الأرجح ، أنين ووداع وفراق . عـادت المرضـة إلى طاولتـها ، وفى توتر وغضب راحت تتحدث فى التليفون بصوت متماسك ومتقلب .

لم يكن الكسى بتروفيتش خائفا من الموت ، وإنما من عملية الموت نفسـهـا . كان يجب أن يتم ذلك بجدارة وكرامـة . بعد ذلك سـيحوّم مع الأرض ، يصبح جزءا من نسيجها الحى . يحوّم ، ويحوّم إلى ما لا نهاية دون أن يتدخل فى أى شئ . لم يكن ينتظر ذكرى طويلة عنه - لا ، ففى القريب العـاجل سـوف تضـربهـا الأمطـار والثلوج وتجلدها ، تذيبـهـا الشمس ، ثم تطمرها أحمال الأيام الجديدة وأثقالها . أولاد وأحفاد ؟ ألم يفـعل هو أيضـا نفس ذلك الشئ بالضـبط مع والديه ؟ من وقت إلى آخر يأتيه تيـار حزن غـامض ، يقلقه بلمـساته الوجلة ، ولكنه مـع ذلك لايعمل على اسـتـبقـائه ، أو التـمـسك به ، فليس لديه وقت لذلك . لن يكون لدى أولاده أيضـا ، كمـا تملى الأزمنة الجـديدة ، أى وقت يذكـر . لا ، عندمـا نخـرج ، يجب أن نودِّع إلى الأبد . أليس هـو ذلك الريح ... المقلقـة ، والعنيدة بهباتها الكئيبة التى تطبق على الروح ... أليس هو حقا ؟ ... لم يتمـادى الكسـى بتروفـيتش فـى تفكيره الذى سـوف يصـدمـه بـالممنوع . الريح هى الريح . والكسى بتـروفيـتش كان يعـرف من أين تـأتى الريح . ولكن ما قيمة المعرفة فى مثل تلك الليلة ، لا ، ليست هناك أية معرفة . الآن فقط حملوا نقالة طويلة ، بطول قامة إنسان - فـهل سيـستـمر كل شئ على صورته دون تغيير ؟ سيأتى يوم جديد - فهل سيكون ذلك اليوم

مشابها للأمس ؟ ولماذا هو ، الكسى بتروفيتش ، يتشبث بالحياة ؟ لاشئ، لاشئ إطلاقا يجعله يبقى هنا بمقتضى أنه مختار . هو ذاته يبتذل ذكره ، يحولها إلى شكل متقوض كئيب ، حتى أثناء الحياة التى فقدت ملامحها .

تحرك الكسى بتروفيتش معترضا : ليس الأمر كذلك . ليس كذلك. ليس من حقه أن يقرر هو ذلك . أربع مرات دخل غرفة العمليات ، أربع مرات وكأنهم كانوا يضعونه فوق الميزان الذى يقيس كميتين معلومتين ، ثم صرفوه إلى حيث أتى . شملته برودة عندما قدّمَ وزنه فى المرة الأخيرة . كان ، تقريبا ، فى غاية الضآلة الأمر الذى جعلهم يستدعونه مرة ثانية . أخذ ينصت إلى نفسه فى توتر وقد نَحّى جميع الأصوات الغريبة الأخرى . بيد أنه لم يكن ينصت ، وإنما كان يرى ، وهو يتلفت إلى الوراء متلصصا ، كيف أضاف إلى تلك الكفة التى راحت تزحف إلى أعلى . طفرت الدموع من عينى الكسى بتروفيتش : لا ، الحياة ، الحياة! مسحها بألم عذب وثقيل وهو يشعر براحة كاسحة . وضع فى ذلك التضرع كل مالديه من قوة ، ثم استغرق فى النوم من شدة الاعياء.

* * *

اتضح أن تلك الليلة كانت ليلة تحوُّل ، بدأ بعدها الكسى بتروفيتش طريقه إلى الشفاء .

استيقظ في سعادة : لم تكن هناك حمى ، السعال بيسر ينبئ بنهاية المرض ، وراودته رغبة فى الحركة . شعر فى موضع الوجع بثقل وكأن حجر يضغط عليه ، ولكن ذلك لم يفزعه بنفس درجة الأمس : ماذا هناك ، أمر معروف الآن . وما العمل ، أمر معروف أيضا . الرائحة الحامضة المتعفنة المنسابة من خلال الجلد ، والتى أضنت الكسى بتروفيتش ، وخاصة في الصباح ، لم تكن فى هذه المرة كثيفة وعديمة الرحمة . خرج منه غشاء ما خانق وقذر ، صارت هناك رحابة فى صدره ، فى رأسه – فى كل مكان . ولكنه تمايل عندما نهض على قدميه، لقد صفى منه المرض الكثير والكثير . اغتسل الكسى بتروفيتش بقوة ، دون إشفاق على نفسه ، تحت سيل قوى بارد ، وبشكل حازم تابع عمله الرائع بعد ذلك : خلع قميص المستشفي الأبيض المصنوع من القماش الخشن وجفف نفسه بمنشفة مبللة مُوبّرَة و- أصابه الضعف . استبدل ملابسه بقميص منزلى ناعم ودافئ بمربعات بنية رفيعة ، وارتمى على الوسادة .

هدأت الريح ، ذهبت الأهوال الليلية التى كانت تملأ الكون ، ومن خلال بقع السحابات المنتفخة المتدفقة نفذ ضوء الشمس . أخذت قمم الأشجار التى تبللت أثناء الليل تواصل اهتزازها وخشخشتها . صاحت

الغربان في حدة وغلظة ، وابتعدت مندفعة واحد وراء الآخر فيما وراء الغابة وهي تحومٍ من خلال النافذة في حشد جماعي منذر بالخطر . تذكر الكسي بتروفيتش الأحداث الليلية ، ولكنه تذكرها دون فزع مثل شئ ما مر في مساره الطبيعي ، والذي كان شاهدا عليه بالصدفة . وفي مساره الطبيعي – يعني حتما ومن كل بد .

قضى هو ذلك اليوم بطوله في طريق التحسن .

أثناء المرور ، أكد الطبيب أنهم لن يتعجلوا في إجراء العملية . الخياطة فعلا سليمة وصحيحة ، أما الورم الالتهابي فمن الممكن النجاح في إزالته ؛ لأنه من الممكن الحصول على الدواء . يبدو أنه لا يستبعد احتمال إجراء العملية ، ولكن هذه الـ«من الممكن» كما بدا لالكسي بتروفيتش قد رنّت بثقة ، وكانت من حيث الشكل مجرد احتياط ضروري لإنسان حذر وحريص من المصادفات . لم يكن من المفترض أن ينتبه الكسي بتروفيتش لذلك ، فواحد مثله بالذات كان مستعدا لكل شئ . حتى وإن انتبه فالجانب الجري لديه يجعله لايخشى : ومن الضروري أن يحين زمن ما يزول فيه سوء الحظ .

اليوم ، كان لدى الطبيب ما يخبر به مرضى ذلك العنبر . وبينما كان ينتف بطن جاره الوعر الخالي من الشعر مثل الصبيان ، سحب رأسه بزاوية من فوق كتفه ، وأملى على الممرضة شيئا ما سجلته ، ثم اعتدل وقال :

– هه ، انطون اليتش ، سوف نستعد . سنأخذكم غدا .

– ولكن كيف ... كيف نستعد؟ – سأل الجار بصوت متعثر ورفع قدميه فى حذر من فوق السرير ، ثم ابتسم بشكل ممطوط .

– ستخبرك المرضة – وخرج الطبيب كعادته دون أن يتأخر .

كانت المرضة هى نفسها التى استقبلت نوسوف فى المساء الأول ، ولكنه لم يتذكرها جيدا فى ضباب الحمى – والآن عرف فيها ، بما تبقى أمام عينيه ، كفها الصغيرة اليابسة بأصابعها المحمرة التى تبدو وكأنها مسلوقة . بدت صغيرة بشكل عام ، وشاحبة ، ولكنها مع ذلك سريعة بعينين متوقدتين وكأنها تحمل خلف كتفيها الحادتين الناتئتين تحت المعطف الطفولى مالا يقل عن ستين عاما . «متقا ... عد» كما كتب حفيد الكسى بتروفيتش على بطاقة التهنئة :

«عزيزى الجد – المتقاعد» . كان صوتها أجشا مشبعا بالتدخين . تذكر الكسى بتروفيتش هذا الصوت أيضا عندما بدأت تتحدث مع جاره موجهة إليه التعليمات :

– حتى الغداء بدون تغيير . تغدوا . العشاء ممنوع . وفى المساء سوف أباشركم .

– أمن المكن ألا أتغدى ، تحسبا لأية ظروف ؟ – مهما كان الجار ينتظر العملية ، ومهما كان يتعجل ، فقد صدقه الخبر . وعندما كان يقترح تقديم مساعدته ، أخذ يتزلف دون إرادة منه إلى تلك المرأة الصغيرة التى كانت تراه عاجزا عن كل شئ .

– تغدوا ، تغدوا . فذلك لن يعيق .

– أهنئكم – قال الجار مستغرقا فى التفكير بعد خروج المرضة

– أنتم محظوظون .

– بعد يومين أو ثلاثة سوف أهنئكم أنتم أيضا – رد الكسى بتروفيتش باخلاص – أتعلمون ، بأية سعادة يعود الانسان إلى وعيه بعد العملية : كل شئ يصير وراء الظهر ، أما هو ، بالرغم من أى شئ ، فالى الأمام .

– من الأفضل إجراء العملية فى مرحلة الشباب .

– لو بدأتم فى مرحلة الشباب ، لما كنتم هكذا شجعان .

أدرك الجار أنه يجبن ، وأن وجهه قد أحمر وتهدل رغما عنه ، وزاغت عيناه اللتان كانتا تنظران ولا تريان شيئا . فأخذ يشغل نفسه بهذا الأمر تارة ، وبذاك تارة أخرى ، يقلب فى الحقيبة ، يعيد وضع العلبة من الطاولة إلى حافة النافذة ، ثم اضطجع ، شاهد التلفزيون فى تبلد ، بعد ذلك نهض مرة أخرى وخرج إلى الممر . نزل إلى أسفل وأحضر الصحف ، مرة ثانية لنفسه فقط ، أخذ يخشخش بها ، ويخشخش ، ثم تركها .

– وزارتكم هذه – سأل هو – أين تقطع الغابات ؟

– لا ، أين تحرسها وتحافظ عليها ؟

- هل حقا يحافظون عليها عندنا؟

ولم يسمع الاجابة ؛ لأنه راح ينظر فى اتجاه ما أمامه .

لم يكن هو الأول - أعطوه الحقنة ، وفى بطء راح يهدأ . أخذ وجهه المتراخى وضعه الطبيعى وصار أكثر لطفا ، ولكن العينين كانتا تنظران كما هو الحال بغموض وحزن . كان صوته يستدعى البكاء . لم يكن ذلك هدوءا ، وإنما عملية كبح ، تلك التى تتدنى معها درجة الإحساس ، ويصبح التراخى والغموض هما اللذان يشكلان خطوط الأحداث الجارية التى كانت منذ نصف ساعة ، فقط ، مضت حادة وساخنة . العالم كله يسبح فى هده الحالة بدون إحساس وبصورة ثابتة من أجل إيجاد وضع أمين ومضمون . حتى الجار راح يشخّر دون أن يدرى أو يشعر ، وفى أنين مبحوح ، ولكن لفترة غير طويلة وبدون صوت عال .

هب مشعثا ، ذاهلا ، وكأنه لايعرف أين هو . وبينما أخذ يدور بعينيه على الجدران وساعته فى معصمه ، سأل الكسى بتروفيتش :

- كم الساعة؟

- قريبا ستصير الثانية . الغداء على الأبواب - أوحى اليه الكسى بتروفيتش .

- يجب أن أتغدى - وبينما شرع فى تجهيز نفسه بسرعة ، راح يبحث عن القدح البلاستيكى المزركش بالورود ، والذى كان موضع حسد الكسى بتروفيتش لأن قدحه المعدنى كان يلسعه .

تبادلا الحديث بعد الغداء . ولكن ذلك الحديث جاء على نحو غير مستحب – ليس فى مكانه ولا فى زمانه ، واحد لم يستطع كبح مشاعر العافية التى عادت ، والثانى عليه أن يجتاز محنة أليمة وخطيرة . واحد محطم وممزق ، منهك ومضعضع ، خرج منتصرا ، والثانى سار لتوه إلى تقارب حاسم وأخذ يتشنج ويحرك فمه بشفتين مطبقتين حتى أن عظام وجنتيه كانت تطقطق ، ومع ذلك واصل التحديق فى التلفزيون ، ومن التلفزيون بدأ كل شئ .

– هلا استرحتم منه – لم يتماسك الكسى بتروفيتش وهو فى سريره – وأرحتمونى أيضا .

– هكذا ، تفضلوا – صاح بها الجار فجأة . نهض فى تأهب وأغلق التلفزيون . حينئذ فقط ، ومن الضرورى ، يجب أن يكون قد رأى نفسه فى ذلك المشهد فى حالة مؤسفة ، فسأل بصورة غير مترابطة – ولكن ما هذا ... لماذا أنتم ضده بهذا الشكل؟

– بروباجندا عدائية كما تقولون – تذكر الكسى بتروفيتش فى لذة .

– أنا لم أقل شيئا من هذا القبيل .

– قلتم عن الصحف . وأنا عنه . عن خيال المأتة الأعور هذا ... من وجهة نظرى طبعا .

– فى أى شئ لا يعجبكم هو؟

– هذا أمر شرحه يطول . ومع ذلك فأنتم تعرفون ،صحفى أيضا لا تعجبكم . فحتى قبل أن تتناولوها فى أيديكم ، تتقززون وتنفرون . وأنا أيضا عنيد .

– معنى ذلك أنكم تتحسرون على ما مضى؟ هكذا – وهذه الـ«هكذا» كانت لديه مثل النقطة لا أكثر . ولكن يمكن تصور أنه فى زمن ما عندما كان الجار فى السلطة ، كانت تتردد فى صلابة وقوة معمقة ماقيل بتلويحة حازمة من اليد .

انتهى الحديث ، وجلس الكسى بتروفيتش بصورة أكثر راحة حيث استدار على جانبه مثبتا الوسادة تحت كوعه .

– اتحسر – وافق هو – ولكن ليس كذلك ، ليس بالضرورة كما تتصورون . وإذا كنتم تودون أن تعرفوا ، فأنا لم أخرج من الماضى بأى شئ . كل ما خرجت به من الماضى يمكن جمعه فى حقيبة تعلق على الظهر – وفى الحاضر أيضا . أنا لم أكن فى صفوف الحزب .

– وذلك فى الوزارة ؟ لم يصدق الجار .

– نعم . لقد عملت بالوزارة لمدة ثلاث سنوات . ذهبت إلى هناك بالصدفة . عينوا مدير المعهد وزيرا ، فجرّنى معه إلى الادارة . وتلك الوزارة ... كانت هامة بالنسبة لنا . وها أنتم أيضا لاتعرفون أى شئ ، يقطعون الأشجار أم يحافظون عليها . أليس كل ذلك يكشف عن حالة الوزارة نفسها ؟

- كانت الامتيازات متساوية لكل الوزارات - كان من الواضح أن الجار يواصل كلامه فى إجهاد حيث رقد وقد ثنى قدمه اليسرى وقذف عليها باليمنى ، وأخذ يهزها بعصبية وهو ينظر نحو الباب . - كان هناك شئ ما - وافق الكسى بتروفيتش - وإن كان من الدرجة الثالثة . هذه المستشفى ... أنا ، والحق يقال ، لأول مرة هنا ، فى حين أننى لا أملك الحق فى دخولها . نعم ، المستشفى . المصيف . ولكن ما ضرورة المصيف لى ، لانسان يعمل بزراعة الغابات؟ لم أذهب إلى هناك أبدا ، ولو حتى لمرة واحدة . أما السيارة فقد كانت لى ، أتيت بها إلى هناك . والمنصب لم يكن هاما ، لا يمكن مقارنته بمنصبكم . فأنتم كنتم أميرا يا أنطون اليتش ، الشخص الأول فى مؤسسة ضخمة للبناء . هناك تسبح الامتيازات ، وتلك الأشياء التى تسمى بالتسهيلات ، ولا داعى للركض وراءها أيضا . لن أتحدث عنكم ، فأنا لا أعرف . ولكن ماذا يعنى رئيس مؤسسة ، فهذا ما أعرفه جيدا .

كان الجار صامتا . أخذ الكسى بتروفيتش نفسه .

- لابد أنكم كنتم في الحزب يا الكسى اليتش ؟

- بالطبع ، كنت . أنتم تعرفون . كيف كان من الممكن ألا أكون هناك ؟

- وأيضا ليس مجرد عضو حزب ، وإنما عضو لجنة إقليمية .

كان من الممكن للجار ألا يرد : لم يكن هناك غير ذلك .

– هل حاربتم ؟

– ثلاث سنوات . لدى جرح خطير – أجاب الجار فى صلابة – ما عساكم ، هل تجرون معى تحقيقا؟

دخلت الممرضة . وضعت حوضا مطليا بالميناء وفيه الحقن على منضدة الكسى بتروفيتش ، وأمرت الاثنين أن يستديرا بجسديهما . ونال هذا وذاك نصيبه . ولا يسعك إلا أن تتعجب كيف يتقنون هنا بحذق غرز الابر فى لسة واحدة غير مؤلمة ، وفى اللمسة الثانية قليلة الاكتراث يمسحون مكان اللسعة بالكحول وهم يقبضون فى نفس الوقت على يد المريض ويديرونها واضعين إياها على القطنة فوق نقطة الدم الوحيدة .

– سأواصل يا أنطون اليتش ، بعد إذنكم سأكمل كلامى – قال الكسى بتروفيتش بعد انصراف الممرضة ، وفى نفس الوقت استدار كل منهما نحو الآخر – ماذا نستنتج : أنتم حاربتم ، وكان لديكم منصبا كبيرا ، لم تكونوا غرباء عن الزمرة الحزبية المحلية ، ساهمتم بجهود غير قليلة فى النظام القديم ... فكيف حدث وصرتم تكرهونه إلى هذا الحد ، وكأنكم – لستم أنتم أنفسكم . فما هذا ، هل ولد شئ ما جديد ؟

قاطعه الجار بشكل حازم :

- لقد حاربت من أجل روسيا ، وبنيت روسيا ، وليس النظام القديم.

– من أجل روسـيـا – وافق الكسى بتـروفـيـتش ، وزفـر بصـوت مـسموع – حاربتم من أجلها ، نعم ... ولكن لماذا إذن عندما قام هؤلاء الشياطين من المؤسسات العلمية – أشار الكسى بتروفيتش وهو ينحنى بذراعه نحو التلفزيون – بالاستيلاء على الاجتماعات التى يكثر فيها الكلام الفارغ ، وأخذوا يسخرون منكم ... نعم ، ومن ضـمن يسـخـرون منكم أنتم أيضـا ... أخـذوا يؤكـدون بأن التضحية كانت عبثا وبدون فائدة، وأن النصر لم يكن ضروريا ... لماذا استمعتم ، مثل الأطفال ، وصدقتم؟ دافعتم عن روسيا ...

– وأنا الآن أيضا أدافع عنها .

– الله معكم ! لو كانوا أقنعوكم على الجبهة بتوجيه السلاح ... من أجل روسيا ... هل كنتم تصدقون؟ على الرغم من – ماذا بى؟ ! وهذا أيضا قد حدث . لقد حدث كل شئ . أما المرعب هو أننا لا نتعلم من أى شئ . ولكن إذا كنتم لم توجهوا السلاح هناك حيث روسيا ، فذلك لأنكم من الضرورى كنتم تعرفون أين هى . ومع ذلك فقد وجهوه هم أنفسهم – ومرة أخرى قام بهجمة فى اتجاه التلفزيون – وهيا من كل البطاريات نلطخ روسيا بالوساخات ، ونقيم فيها الأنظمة التى لم يرها أحد فى أى مكان أبدا ، ونرتدى جلدا غريبا . من المعقول ألا يكون كل ذلك قد طعنك فى قلبك ولو مرة واحدة ، لماذا ، ولأى سبب يغرفون روسيا هكذا بالشتائم؟ فى روسيا ... ألستم روسيًا يا أنطون اليتش ؟

- أليس ذلك واضح ، أم ماذا ؟ - قال الجار في برود ونفور وهو ينظر إلى الكسى بتروفيتش مقطبا . - حتى الآن هذا واضح . فلدينا على كل حال صفاتنا المميزة . ولكنهم في القريب العاجل سوف يمسحون بها الأرض . قولوا لي ، أي روس نحن وأنتم ، إذا كما قد سمحنا بأن يدوخوننا هكذا ؟ يجب أن تكون لدينا بديهة إذا لم يكن هناك شئ آخر . روسيا بالنسبة لكم في جانب ، وبالنسبة لي في جانب آخر . لا ، ليس هناك حيثما كنا نحن وأنتم أثناء الشيوعية . كما أنها ليست هناك أيضا حيثما تنظرون ، ليست هناك إطلاقا . يمكن الافتراض أنني على خطأ . ولكن انظروا ، إننا همجيون ، متوحشون ، فاجرون ، سكيرون ، عيّابون ... خلطة متكاملة ... تنابلة ، قطيع خانع ، نقبل على الأيقونة بشكل لا يختلف عن تعاملنا مع الفأس . يجب أن ننتقل إلى العالم المتحضر لكي ننظم أنفسنا . فانظروا كيف يتحضرون . سكيرون - ويغرقوننا بالفودكا الرخيصة . فاجرون - وكل العار ، كل مجون البشر من كل أنحاء العالم ، وكل التشوهات المنافية للعقل - كلها موجهة إلى هنا . همجيون - تنقل بحرية يا أي قاتل ، اغتصب ، انهب ، اسرق ، اقتل بدون عائق أو رادع ، ولتستحوذ المافيا والفساد على ثروة الدولة ، اتحدا معا ، اقبضا على زمام السلطة . تنابلة - حتى الخبز والسمن لا يأخذونهما من فلاحهم ، وإنما يجلبانهما من وراء المحيط . وقحون - الشتائم

تملأ فم أى مربى ، ألا يبدو لكم ... هه ... أن وسيلة التربية هذه غير مناسبة على الإطلاق ... إطلاقا غير مناسبة؟! اقتصرت الحرية فقط على ذلك - كيف يصير وأن تنهب البلد بشكل نهائى وبدون ضمير وبلا خجل ، ويصنع منا نحن وأنتم بهلوانات ، أما نحن فقد فغرنا أفواهنا : سوف يقدمون إلينا روسيا الحقيقية ! لا، يا أنطون اليتش ، هذه ليست روسيا . معاذ الله !

تنهد الكسى بتروفيتش ، وسكت . تنفس الجار أيضا فى صعوبة ونظر إليه بعداء . وفجأة ، على طريقة الصبيان تماما : نهض بصورة استعراضية وفتح التلفزيون .

- الأخبار - أعلن هو - اعذرونى ، لا يمكننى عدم سماعها

- طبعا ، طبعا - ليس بدون دهشة وافق الكسى بتروفيتش ، وبالمثل استدار فى صورة استعراضية نحو الحائط . لكنه لم يهدأ ، اشتعل صدره بألم محتدم من جراء الغضب ، ومن الضياع العظيم ، الشامل ، الكائن حيث الوجوم والكآبة ، الضياع البادى على كل وجه بشرى ، والموجود فى كل كلمة . وبما أنه لم يكمل حديثه ، فقد انتظر ريثما ينهى المذيع ، ذو الوجه والتسريحة اللذين يشبهان دمية «باربى» ، قرقعة صوته الميكانيكية السريعة .

- أتعرفون ، ما هو الشئ الآخر غير المفهوم ؟ - انتهز فترة صمت بعد الأخبار لكى يسترسل - مفهوم ، بالطبع مفهوم ، ولكنه مفهوم إلى درجة الغموض . العقل يأبى أن يتقبله . فنفس نافخو الأبواق هؤلاء هم ذاتهم استغفلونا منذ عشر سنوات

مضت ، وما زالوا يستغفلوننا إلى الآن أيضا . أما نحن فقد أطلنا آذاننا . وإذا كنتم متفقين معهم اليوم ، فهذا يعنى أنه يجب الاعتراف بأنهم فى الأمس كانوا يستغفلوننا ؛ لأنهم كانوا يتكلمون على العكس تماما . وإذا كانوا قد استغفلونا بالأمس ، إذا كانوا هم أنفسهم ، فمعنى ذلك أنهم يستغفلوننا اليوم أيضا . وهذه هى الفئة التى نشأت وترعرعت على أكتافنا . وتارة الرأسمالية - المرعبة ، وتارة أخرى الجنة . ولو كانوا يستطيعون لغيروا حركة الشمس أيضا كى تشرق من الغرب ، ولكان علينا نحن ، المغفلين ، أن نسير بظهورنا . أتعرفون ، كيف أدير مقود السيارة؟ لو أن تلك العصابة راحت تغنى فى صوت واحد بأن منفعة روسيا هناك - فذلك يعنى أن المنفعة من طريق آخر تماما . وهذا ما سيظهر بعد ذلك ، التوجه الصائب - لاحاجة إلى بوصلة ، ولا إلى سمت .

- وبالتالى فأنتم وحدكم بهذا القدر أذكياء ، أما الآخرون فمغفلين ! - صاح الجار وهو ينهض بصورة حاسمة - اهدأوا ، يا الكسى بتروفيتش ، كفانى . أنا ، ربما ، مغفل ، ولكن الأمر سيان بالنسبة لى الآن .

تلعثم الكسى بتروفيتش : ماذا به فى واقع الأمر؟ فهو ليس فى حفلة خطابية ، والعين ليست ضرورية لرؤية أن ذلك هو الذى لا يؤلم جاره الآن . قدم اعتذاره ، فلم يرد الجار . وفى نفس تلك اللحظة بالضبط انفتح الباب ودخلت زوجة الكسى بتروفيتش ، وبمجرد أن دخلت

من الباب حتى أخذت تبتسم وتتمعن فى الكسى بتروفيتش ، ثم ألقت التحية ، ووضعت الحقيبة الثقيلة على الأرض بمحاذاة السرير ، وغنت :

- كم هو رائع عندكم ! بالضبط فى غابة !

- هنا أجمل مكان لكى يمرض الانسان - أجابها الكسى بتروفيتش بنفس الايقاع .

* * *

حملوا الجار فى الصباح ، وصار المكان هادئا ورحيبا . صعد بصعوبة وضجيج إلى نقالة رفيعة متحركة غير عالية . استغرق ذلك فترة طويلة ، وكان يتحدث فى عصبية ، «لو أمكن من قدمّى ، من قدمّى - أخذ يردد - إلى هناك ، وبقدمّى ، لماذا تتعبون أنفسكم؟» وقفت ممرضتان من غرفة العمليات على طرفى النقالة تنتظران ، وهما فى معطفين منشيين وطاقيتين .. شابتان جميلتان تتطلعان فى جدية وصرامة بوجهى أيقونتين بدا من نصوعهما أنهما لمبشرين سماويين . وعندما وُجّه الأمر إلى الجار بخلع ملابسه ، ولما صار عاريا تماما وغطوه بالملاءة ، هدأ على الفور مثل الذبيحة . فقط راح يشد عروق رقبته ويحرك رأسه الأشيب الكبير على الجانبين . وصادف أن كانت النقالة المتحركة خربة ومترجرجة ، فظل الأنين والصرير الحزين المتوتر مسموعين لفترة طويلة من جهة اليمين حيث حملوها .

جاءت ممرضته ، تاتيانا فاسيليفنا ، أخذت تجمع الأغطية والفراش من سرير الجار وهى تزفر ، ثم دفعت التلفزيون فى الركن . اندهش الكسى بتروفيتش :

- كيف خمنتم ، أننى لست على وفاق معه ؟

- ولماذا يجب التخمين؟ - أجابت هى - إننا نرى . لستم أنتم وحدكم . فهذا هو أول أسباب الخلافات عندنا . واحد يريد البرنامج الأول ، والثانى يريد الرابع ... أو واحد ما لا يمكنك تعتعته من مكانه ... صدقونى ، كانت هناك حادثة فى العام الماضى : مات من أجل التلفزيون . والثانى لا يشاهد من حيث المبدأ ، فيطلب نقله إلى عنبر بدون تلفزيون .

- ولكن هل توجد هذه العنابر حقا - بدون تلفزيون يجمع الجميع .

- لا . ولكن هناك تلفزيونات لاتعمل . يظلون وراءها من الصباح حتى المساء - بدون جدوى . أما «الفدائيون» فبالطبع ...

- وهذا أيضا ، ماذا يعنى ؟

- يعطلونه عن عمد . لايعمل ، لايعمل - وفجأة يبدأ البث - كانت تتحدث بصوت رخيم ، خفيف وغير عميق - «فدائى» ، هذا يعنى أنه يذهب ، ويغرز شيئا ما هناك فى المكان . وقد نسى أحدهم أن يغرزه هناك ، كان حزينا للغاية ... رحل وظل التلفزيون لايعمل كما كان عليه فى السابق . جاء واحد جديد فى مكانه ، وراح يحاول معه لكى يعمل ، طلب مُصلّحا . ولكن

ما شأن المصلّح هنا – أنا أعرف أن القضية ليست قضية مصلّح . وإذا بى أتصل بذاك ، وهو شخص هام فى عمله . وأقول : «أنتم ، يا سيرجي سيرجييتش ، ألم تنسوا معكم أية أنبوبة صغيرة؟» – ضحكت الممرضة متذكرة كيف أجاب «الفدائى» الذى انكشف أمره . «أوه – يقول – تاتيانا فاسيليفنا، لقد نسيت فى الحقيقة . كيف عرفتم؟ هذه الأنبوبة فى الدولاب على الرف العلوى ملفوفة فى قطنة هناك . لا تضعوا السماعة ، انظروا ، هناك أم لا ، وأن لم تكن فسوف أبعث بغيرها . ما عساكم ... إنها هناك ، طبعا . كانت صغيرة جدا جدا – أشارت الممرضة ، على إصبعها ، كم كانت صغيرة – ومثل ذلك الشئ أوقعنا فى حيرة وارتباك .

– أنها مقاومة – قال الكسى بتروفيتش فى تلقين وهو يبتسم أيضا بنفس التوجس الذى نظرت به الممرضة إلى التلفزيون الجاثم فى إهمال.

– نعم ، نعم ، مقاومة ، ولكنها هكذا صغيرة ...

بعد العملية احتجزوا الجار يومين فى غرفة الانعاش . ظلت تلك الأيام على كل حال معتمة ، بسماء متراخية متبلدة مثيرة للكآبة . وقف الكسى بتروفيتش طويلا عند النافذة ، وأخذ ينظر كيف تدخل القامات البشرية راكضة على الطريق الخرسانى إلى الغابة وتخرج منها برؤوس عارية وعباءات على الأكتاف . وتحت النافذة ، عند مدخل الخدمة .

راحت الأقدام تضرب الأرض بصوت عال وهى تُسقط الأوراق المعلقة . امرأتان ترتديان ملابس عمل رسمية تحت ملابس أخرى . ضخمتان مثل كل عمال الطرق ، تجمعان فروع الأشجار المتساقطة التى ألقت بها الرياح ، وتتحدثان بصوت عال وهما تسبان أحد ما باسم أدينتسوف الذى يكذب ويسرق . «الجميع يكذبون ويسرقون!» - من وقت إلى آخر تقومان بعملية تعميم وهما واقفتان فى مواجهة بعضهما البعض فى وضع مثل الكهنة تشوحان بأيديهما ، وبعد ذلك عادتا مرة أخرى إلى أدينتسوف . واحدة فى حذاء رياضى بقدميها الكبيرتين مرتدية على رأسها شئ ما متجعد يشبه الطاقية العسكرية ، وكانت جهورية جدا بصوت بوق متسلط .

- يقول لى - رددت بصوت باص على الطريقة الأوكرانية - اذهبى للعمل فى الكرملين إذا كان العمل هنا لايعجبك .

- أى جهبذ هو - ردت الثانية التى تتحدث وهى تترنم .

- فى الكرملين ! - قلتُ - فى الكرملين ! فى الكرملين ! «لماذا - قال هو - لا يعجبك الكرملين؟ ستكونين هناك فروة محترمة تقى من الثلج ، وستكنسين هناك بمقشة . أنت امرأة من أصل شعبى ، وسوف يدفعون لكِ أجرة إضافية من أجل الجسد الشعبى» .

- معقول ! ولكن أين تعلم ذلك؟! - قالت الثانية مندهشة - هو نفسه مثل المخاط تقطفينه بلمسة واحدة ، ويقل حياءه على الجسد

الشعبى . لو أراه ، لأمسكت به على طريقتى ، ولاعبته ، حتى يعرف حقا ما هو الجسد الشعبى ، ويكون حريصا معه .

من فوق الغابة تناهت عن بعد دقات القطار المألوفة تارة ، وتارة أخرى رنين الأجراس الرقيق الخافت ، وانتصب الهدوء الدفين الممتلئ للمدينة الكبيرة . تلاشى الضوء البنى سريعا ، واضطرمت نيران مبكرة وهى ترتعش مثل نجيمات صباحية ، وراحت تتفرق فى ضفائر طويلة متلألئة فى خفوت حتى تحولت إلى هالة واحدة متسعة - وكأنه بالضبط ، قد اشتعلت الأرض عند الأفق . أحزنه إحساس أنه يرى ويسمع وكأنه فى قفص ، ولكن الأمر الأكثر إثارة للحزن أيضا كان التفكير فى أنه مضطر بنفس تلك الكآبة المستعصية لأن ينظر فى اتجاه مجهول من نافذة شقته ، ويتيقن فى كل مرة من أنه لا شئ أكثر من ذلك يمكن انتظاره من الحياة . فى مدينة كبيرة ، تُذَكّرك بأطلال بناية عملاقة فُتحَت فيها منافذ وثقوب للسير والمرور على عجل وكيفما أتفق ، تنظر من النافذة - يعنى أنك تنظر فى اللانهاية . وفقط ، عندما تبتعد ، فى وسط الأصوات والوجوه القريبة المحببة ، الحميمة ، يمكنك أن تهدأ ، ومرة أخرى تقول لنفسك أن الشئ الرئيسى الآن - أن تنهى حياتك بكرامة . الآن وقد انفجر من أعماق الحياة كل الشر الذى تراكم فيها على مر مئات السنين ، وأنقض سيولا على كل إنسان ، لاسيما وأنه من الضرورى إنقاذ النفس منه مهما كلف الأمر ، والبرهنة للعالم كله ، ولنفسك ، بأنه ليس كل شئ يركع أمام الارادة الشريرة التى انتصرت .

في الممـر الطويل تسكع مـرضى حـزام الحـوض ذهابا وإيابا – مـحنيـون ، يخطون في حـرص لكي لا يؤذون أو يرجّـون أي شئ في أنفسهم ، بأكياس الاثيلين على أفخاذهم تطل من تحت معاطفهم ، وتهتز وتبقبق أثناء سيرهم . خرج إليهم الكسي بتروفيتش واهنا ضعيفا أيضا وقد انحنى وأخذ يحك الأرض مثلهم بقدميه ، ويتحدث أيضا بصوت خافت . في مثل هذه المستشفيات كان الموكب يتكون فقط من العجائز وحدهم ، وهنا كان الشباب كثيرين ، يرتدون ملابس رياضية فاتحة . يتحدثون بصوت أعلى وأكثر حرية ، ولكنهم أيضا بوجوه متجمدة من المرض . ولاحظ الكسي بتروفيتش شيئا آخر : قبل العملية كانوا يلتزمون بمجموعتهم ، وبعد العملية بدوا أكثر مرحا ، وبدأوا المزاح مع بعضهم البعض – في مجموعتهم الجديدة . كان الأطباء والمرضات يركضون متعجلين باستمرار ، التليفون يطنطن تارة في وضع معين ، وتارة في وضع آخر . يدفعون نقالات متحركة بأجراس مجلجلة ، يحملون على أيديهم الممدودة قطّارات على حوامل عالية ، تومض على أبواب العنابر لمبات استدعاء المرضات – وتَحرّك ، تَحرّك صف محنى من سبعة أو ثمانية أجساد في محاذاة الحائط يحفون أقدامهم وكأنهم في موكب طقوسي ، ومن خلفهم صف آخر ...

حقنوا الكسي بتروفيتش بلا رحمة ، ولكن الثقل الحارق تحت الخياطة لم يتلاش ، خاصة ذلك الثقل الذي كان يعلن عن نفسه بمجرد أن ينهض على قدميه . بيد أنهم عرضوا له صور الأشعة وعليها بقعة

قاتمة للورم الالتهابى وقد راح يضعف ويختفى تدريجيا . وأخذ يصدق أكثر فأكثر أنه سيجتاز الأمر على الرغم من أن الطبيب ، كسابق عهده ، كان حذرا في تقديراته . ومع ذلك ففى كل منا ذلك الإحساس العضوى - الداخلى - الذى نشّط الكسى بتروفيتش وجعله أكثر حركة وتدفقا .

فى ذلك اليوم الذى لم ينتظر فيه حتى يأتى المصعد ، اكتشف درجا واسعا من المرمر بدرابزين نحاسى لامع مصقول ، وقد غُطّى المعدن بمشغولات الدانتيلا المصبوغة باللون الأسود - بالضبط مثل مدخل رسمى فاخر فى صالة لحفلات الرقص . كأنه عثر على مخرج تم إخفاؤه - هكذا داعبه الأمل . وبعدما وقف على هذا الدرج ، وحشد قوته ، نزل إلى المكتبة وتناول طبعة قديمة ، من قبل الثورة ، لديستويفسكى عن الأمير ميشكين . حضرت الزوجة ، فودعها من هذا الدرج . أعجبت الزوجة بالنوافذ الواسعة بطول الحائط ، والمطلة على الساحات . كانت تحب الضوء الكثير ، أما الكسى بتروفيتش فقد اندهش لأنه لم ينتبه إلى النوافذ . وعموما فقد كان انتباهه محدودا بخصوص ذلك الأمر .

ظهرت تاتيانا فاسيليفنا مرة أخرى ليس فى دورها حيث ناوبت بدلا عن أحد ما ، وحكت كيف أنهم يطردون حفيدتها ، فى الصف الثالث ، من مدرستها الأصلية .

- عملوا من المدرسة ، مدرسة خاصة للأغنياء - كسرت تاتيانا فاسيليفنا عنق الأمبولة الزجاجى الرفيع فى طقطقة وسحبت

السائل فى الحقنة – عملوها ، وراحوا يطردون الغرباء . ولكن أى غرباء نحن ، لقد كانت المدرسة على الدوام تابعة لمنطقتنا ، وابنتى أيضا درست هناك . أما هم ، فمن كل أنحاء المدينة يتوافدون إلى هناك فى سيارات الليموزين . أوه ، وأية ليموزينات ، يا الكسى بتروفيتش ! فى الشارع ، فى خضم السيل المتدفق لايمكن الانتباه إليها ، ولكن عندما تتجمع مع بعضها – معرض ! معرض ... – قررت فى خفوت وهى تنحنى علي الكسى بتروفيتش منهية عملها فى لحظة راحة – وحتى منذ الخريف أعلنوا أن نتاشا متخلفة عقليا . أى أنها هى المتخلفة عقليا ! إنها فتاة فى غاية الذكاء . رفضت الأم إخراجها من المدرسة فى الخريف . أما هم ، ففى حاجة إلى أماكن لأعداد صغيرة لكى يدرسوا أفضل . وبالتالى فقد راحوا يتفننون ... بالأمس – اجتماع لأولياء الأمور ، تذهب ابنتى فيرا ،، ومرة أخرى : ابنتكم بليدة ،،وسيبقى لدينا المتطورون ذهنيا فقط ويعلنون : بداية من سبتمبر ستكون الدراسة مقابل نقود . بالعملة الصعبة . وهكذا ، يا الكسى بتروفيتش : بالعملة الصعبة – أنهت كلامها فى تشديد حازم وعاجز بينما أسقطت الحقنة المستعملة فى الحوض بضجيج – أما نحن ، الناس الذين ليس لدينا عملة صعبة ، علينا أن نحتمل كل شئ ممن لديهم العملة الصعبة .

* * *

جاؤا بالجار قبل الغداء . وبينما أخذ يترنح بعد إنزاله من فوق النقالة وقد أسندته ممرضتان حتى السرير ، كان من الصعب عدم ملاحظة أنه خلال يومين قد انكمش جسده ، مثل الوليد تماما . وفقط رأسه الكبير فوق جسده القصير المتهدل والذى كان يعطيه شكل فرخ الضفدع ، هو الذي ذكّر بامتلائه السابق . أخذ نَفَسَه فى فراشه ونظر شذرا إلى الكسى بتروفيتش بعينين صفراوين .

– هه ، كيف أيها الجار ، مازلنا أحياء ؟ – سأل بصوت خائر مرتعش ، وحرك يده إلى أسفل ، نحو الجرح .

– أحياء ... وأين المفر ؟ كيف كانت العملية ؟

– كيف ! يربطون الأيدى والأرجل ، يشحذون السكين ، ويبقرون . وعليك أن تحتمل إذا كنت تريد أن تعيش . اقتلعوا زلطة ، انظر ، هكذا – مدح نفسه مشيرا بيده إلى حجمها – أكبر من بيضة الحمامة . وقد وعد الجراح إهداءها إلىّ للذكرى .

كانت تُسمَع ، من خلال الألم ، فى صوته رنه رضاء وكبرياء : لقد احتمل ، واجتاز مثل هذا الطريق الوعر !

استيقظ الكسى بتروفيتش فى الليل على قعقعة المقعد الذى سقط . انحنت القامة البيضاء الجالسة على السرير بشدة ثم انتصبت ثانية ، كانت تفتش عن شئ ما على الأرض . بعد ذلك نهضت واقفة وخطت خطوة فى صعوبة . ضغط الكسى بتروفيتش بسرعة على زر تحت يده اليمنى ، سمع كيف رن الجرس بازعاج فى الممر خلف الباب ، ثم نهض .

دخلت المرضة تاركة الباب مواربا ، وعندما دققت النظر ، رأت قامتين واقفتين فى مواجهة بعضهما البعض . نقرت مفتاح الكهرباء ثم أغلقت الباب وانقضت على الكسى بتروفيتش وهى بين اليقظة والنوم فاردة يدها لكى تجلسه . وبمجرد أن انتهت من الكسى بتروفيتش حتى هزت رأسها فى دفعة واحدة تعبر عن حالة صحو لحظية ، واستدارت متجهة صوب الجار . كانت هى تلك الفتاة الصغيرة ، المسنة ، قوية الشكيمة التى كانت تفعل كل شئ فى عجلة . أما كيف كوّمت الجار بيديها الطفلتين ، ومن أين جاءت بتلك القوة لكى تُجْلِس بهدوء ذلك المقاوم الذى يحاول الوقوف ، وتضمه ثم تُدْخِل قدميه بحرص فى الفراش . لم تكن هناك سوى الدهشة ، ولم تكن مساعدة الكسى بتروفيتش ضرورية لها .

– ارقد ، ارقد يا صغير – رددت وهى ماتزال ممسكة بالجار فى قوة – تَسَيّب وإنحلال . غير مسموح لك بالنهوض . فماذا نفعل معك إذا حدث شئ ؟

تمتم الجار بشئ ما غير مفهوم ، ثم هدأ .

– ماذا به – ألا يتذكر نفسه ؟ – سأل الكسى بتروفيتش .

– إنها بقايا المخدر . فهو يمكن أن يؤثر لفترة طويلة – أوضحت المرضة بكلمات سريعة مقتضبة وهى تلملم شعرها القصير المصبوغ بلون ما ضارب إلى الصفرة الفاقعة ، ثم وضعت عليه الطاقية – ألاتعارضون إذا تركت الباب مواربا ؟ أخشى ألا يكون هذا هو كل شئ .

وبالفعل لم يكن ذلك كل شئ . هدأ الجار لفترة غير طويلة وهو يتنفس بصوت مسموع ويطلق شخيرا مطنطنا . بعد ذلك رفع رأسه وأخذت يداه تشوّحان ثم نزلت قدماه فى صعوبة . ضغط الكسى بتروفيتش ثلاث مرات دفعة واحدة على الجرس ، دخلت المرضة راكضة ، أرقدته بدون جهد يذكر ، ورددت : «إلى أين ، أيها المريض بالروبصة ؟ ألا تريد العودة إلى مكانك ؟ » - ضغطت المريض فى الفراش حتى أنت نوابض السرير . وقفت إلى جواره فى نوبة حراسة قصيرة ، ثم تسحبت فى هدوء إلى الخارج . انتهت كل تلك الجلبة بالحقنة التى سَكّنَتْ الجار حتى وقت متأخر من الصباح . لم ينم الكسى بتروفيتش بعد ذلك . راح يستمع كيف يستيقظ ذلك المكان الضخم متعدد الطوابق والأقفاص ، الملئ حتى النهاية بخزانات الأمراض ، والمسمى بالمستشفى : بصفقة خافتة اصطك باب المدخل الرسمى ، انزلق المصعد فى مجراه ، اندفعت الكابينة بنقرات فى أحد الطوابق ، طن مقبض دلو ، تأوه أحد ما فى خفوت ... وببصر ما ممتاز رأى كيف تخرج من المصعد شابة ، فتاة صبية للغاية ، إلى الدرج المنبسط المزخرف بالقرميد الذهبى ، ترتدى معطفا قصيرا للتنزه ، بساقين طويلتين جميلتين ، وكيف تدخل إلى غرفة المرضات وتبدأ فى ارتداء الأبيض ، وفى خمس دقائق تتحول إلى ملاك، ولكن شعرها الأسود مازال مفرودا ومنسدلا كالسابق ، وحركاتها متمهلة خافتة . تأتى مبكرا لكى تشرب القهوة قبل بدء نوبتها ، تنتظر حتى يبدأ الابريق الكهربائى الصغير ، هدية أحد المرضى السعداء ،

فى الغليان بيده الناتئة فى نصف دائرة ... وفى نهاية الممر تبدأ امرأة ثقيلة مسنة ، عجوز تماما ، فى جر المسحة على مشمع الأرضية السميك الذى يغطى الأرض تماما ويكاد يبدو مثل الباركيه . كانت تعصر الخرقة فوق الدلو ، ثم تلقى بها مطوحة إياها أمامها . وجهها متورم ، ممتلئ ، وأسنانها متآكلة ، وجونلتها الزرقاء القاتمة ، البالية ، ترتفع بفعل حركاتها الواسعة لتكشف من تحت الجوارب البشعة المسوكة من أعلى بقطع من المطاط عن جسد أبيض مترهل مفرط فى الانتفاخات والنتوءات التى تترجرج إلى الأمام وإلى الخلف أثناء العمل . المرأة تعيش بالقرب من المستشفى ، تأتى مبكرا . بعد ذلك تشرب هى الأخرى كوبا من الشاى الساخن الذى يكون قد تم تسخينه فى المطعم حين تنتهى من العمل ، وبمجرد أن تبدأ ارتشافه تظل ترقب فى لامبالاة كيف يوحلون الممر الذى غسلته للتو ، وسوف يكون الكسى بتروفيتش من ضمنهم ، من ضمن أولئك الذين لن ينتبهوا إلي مجهودها .

اعتاد الكسى بتروفيتش طوال يومين على الوحدة ، أما الجار العائد إلى العنبر فقد بدأ يحتل مكانا أكبر مما سبق . ولكن حالته كانت مؤسفة ، حتى وهو نائم يشخر ويئن فى آن واحد بصوت مضاعف ، مستلقيا على ظهره متراخيا ومتغضنا على نحو ما والألم ظاهر على وجهه الذى غطاه الشيب . مع ذلك لم يتذكر أى شئ من مشاكساته وألاعيبه الليلية . وعندما قال الكسى بتروفيتش له ، حينما قام لأخذ الحقنة ، دون أن يتطرق إلى التفاصيل بأنه وقف على قدميه فى الليل ،

صرخ الثانى مفزوعا فى الحال :

– إننى ممنوع من ذلك !

– هذه هى المشكلة ، أن ذلك ممنوع . فكيف حالكم ؟

– ألم أضر بنفسى ؟ – سأل الجار دون أن يجيب .

– أعتقد أن الأمور مرت بسلام . ولو كان الوضع غير ذلك لكنتم قد استيقظتم منذ زمن .

راح الكسى بتروفيتش يقرأ الصحف التى أصبح الآن ينزل من أجلها بنفسه . وعندما بدأ القراءة لسعه الألم ، ألم آخر ليس ماديا ، ولفحته رياح حارقة طوقت صدره . استلقى إلى الوراء على الوسادة مشتعلا ، وأخذ يعذب نفسه : كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ كيف يمكن أن يحدث ويستسلموا لأنجس طُعْمٍ ثم يشرعون فى التخريب ، والتدمير ... ولمن استسلموا ؟! يا إلهى ، لنستمع فقط إليهم ، لننظر فقط اليهم ! فى أية قرية لم يكونوا يرون فى الكذاب إنسانا ، كانت لديهم عيون وآذان لكى يقوّموا . ولكن حينما تجتمع فرقة من الكذابين ، الواحد منهم أوقح من الثانى ، وأكثر انتهازية ومطامعا منه ، فأية وسوسة شيطانية هذه ؟! وبينما راحت المصيبة تحرقه ، أخذت تطن فى رأسه نغمة مبهجة : «رائع يا إخوان رائع ، رائع يا إخوان أن نحيا ، فمع رئيس عصابتنا لن نأسف أبدا!»

- ماذا يكتبون؟ - سأل الجار ناظرا فى التماس ، وفجأة استجمع الكسى بتروفيتش شجاعته وحمل إليه الصحيفة . تصنع الكسى بتروفيتش عدم الفهم ، وأجاب فى غضب :

- إنهم يقضون على روسيا ، يحطمونها تماما .

- من الضرورى المرور بفترة صعبة ...

- وإلى أين نخرج - استرسل الكسى بتروفيتش - إلى الصحراء ؟ إلى خراب شامل وممتد؟ أنهم ليسوا بنائين ، أنهم لا يقدرون على البناء. لديهم فقط تلك الحرفة ، تلك العبقرية - التدمير ! نعم - تذكر فجأة - على كل حال أنتم كنتم بنّاء . ويمكنكم أن تميّزوا : أما يبنون الحائط بالطوب ، وأما يدقون فيها الحديد الزهر!

- أنا بنّاء وأعرف ، بدون الحديد الزهر لا يمكن اجتياز السلسلة الصفرية .

- هذا صحيح : السلسلة الصفرية . لم يتحركوا أبعد من السلسلة الصفرية .

- ولكن هل تعرفون على الأقل ما هى السلسلة الصفرية ؟

كان قد بدأ يصيح كل منها على الآخر . لوّح الجار بيديه من فوق رأسه ، تشبث بظهر السرير ثم استوى معتدلا لكى يحرر صوته الذى أخذ يرن فى اختناق وصأصأة . وفجأة صمتا معا دفعة واحدة - كأنهما شاهدا أنفسهما من الجانب الآخر . وأصبحت مواصلة الحديث تشكل خطرا .

– افتحوا لى ، من فضلكم ، التلفزيون – طلب الجار مشددا فى لطف واحترام .

– استريحوا – أجاب الكسى بتروفيتش منحنيا دون أن يتنازل أمام الجار رغم لطفه وتأدبه – هذا مضر لكم .

وفى نفس الوقت راقب نفسه مندهشا : لماذا كل ذلك ؟

اندهش الجار أيضا :

– الكسى بتروفيتش ، لكنكم لستم فى غابة !

– هذا هو الأمر بالضبط . هناك لا نضع أصحابكم ، الذين جلبوا لنا العار ، فوق أشجار الصنوبر ، ولا نعلقهم على أشجار عيد الميلاد ؛ ولذا فالوحوش عندنا أكثر شرفا واستقامة من الناس .

– نعم ، اعتقدوا كما تريدون . ولكن هل من الممكن فتح التلفزيون؟

– استريحوا ! – لم يعرف الكسى بتروفيتش نفسه ، لم يفهم إصراره ، وأخذ يتخيل كيف سيتعذب بعد ذلك من الخجل . ولكنه تمسك مشدوها برأيه .

لم ينتبه عندما ضغط الجار على الزر . دخلت المرضة تاتيانا فاسيليفنا وانحنت أمام الجار :

– هل هناك ألم يا أنطون اليتش ؟ هل أعد مسكنا للألم ؟

– اعدى ! – أجاب فى غضب – وافتحى لى ، من فضلك ، التلفزيون .

انتصبت الممرضة التي التفتت في توتر وتساؤل، ونظرت إلى الكسي بتروفيتش . فأومأ اليها ، وخرج .

* * *

لاحت الشمس من تحت تماوج السماء الأرجواني المتوارى تارة ، وتارة أخرى ضاعت فيه كما في الأمواج ، وفجأة أفلتت من مكان ما بقعة شمس شاحبة ، راحت تركض في الممر بين الأشجار ، قفزت على المقعد الخشبي الطويل المطلي حديثا بلون سماوى فاتح ، ثم اندفعت بسرعة على جدار الغابة الأسود . انتشرت الحديقة على امتداد الاتجاهات الأربعة ، وفي ثلاثة اتجاهات قطعت الحديقة ممرات بين الأشجار وشريط أسفلتي لطريق السيارات عن الجوانب التي أمتدت فيها طرق المشاة بالمقاعد الخشبية الطويلة المصفوفة عليها بكثرة . كانت الطرق تتفرع أيضا إلى داخل الغابة – وهناك أيضا كانت المقاعد الخشبية منتشرة على شكل بقع زاهية فوق الأرض الجرداء الموحلة ، وهناك تدلت كؤوس المصابيح المقلوبة من دعامات رفيعة بيضاء بأعناق مقوسة .

بالأمس فقط سمحوا لالكسي بتروفيتش بالتنزه . وبالأمس فقط عثر على معطفه وحمله إلى غرفة تغيير الملابس ، والآن بعد أن ارتداه خرج لأول مرة إلى الهواء . في البداية تراءى له أن الجو بارد حيث هبت عليه

دفقة رطبة منداة بمجرد خروجه ، ولكن ذلك كان شيئا طبيعيا بعد رقاد دام لمدة أسبوع . بل وأيضا من قبل ذلك - بفترة انقطاع لا إرادى بعد شهر من الرقاد فى غرفة عابقة برائحة المرض الراكدة ، بعد التقلبات فى حُمَّى الأدوية ، والتقلبات التى لا تقل عنها فى حمى الحكايات عما يمكن أن يحدث إذا أخذ ضربة برد والتهب المكان الذى توارى فيه الرّدب خالد الذكر . ولكنه اعتاد الجو سريعاً - لا ، ولكن حسنا : الأرض تتنفس ، الغابة تتنفس رائحة العفونة اليابسة ، السماء المكشوفة تتنفس ، الهواء مشبع بروائح تخمر ربيعى حلوة تخدر وعيه ، تدير رأسه ، وتثير حرقة فى حلقه . خرج الكسى بتروفيتش إلى أحد الممرات بين الأشجار ، وصل إلى آخر - الأسفلت ، والأرض أيضا لا تهتز ولا تتمايل من تحت قدميه ، فروع الأشجار الصغيرة لا تتقصف ولا ترتعش ، لا تلمع شبكات الدانتيلا بلون فضى فى الركن المبلل حيث مكان الثلج الذى ذاب ... تذكر أنه رأى فى نافذته من خلال الأشجار العارية خط مياه ، ذهب إلى هناك حيث يمكن أن يجده . انتهى إلى نهر صغير بمياه قاتمة وجزيرة صغيرة مكومة فى المنتصف وقد ألقى عليه جسرا خشبيا صغيرا مقوسا . عندئذ ضربت الشمس بأشعة ذهبية أضاءت النهر وجعلته أكثر أسطورية . وصار الجو دافئا .

عثر الكسى بتروفيتش على أريكة خشبية مريحة – كان النهر مرئيا مع الجزيرة والجسر ، وهو نفسه متواريا في عمق حرش متألق ومريح – فجلس عليها وهو يتكئ على أسفل ظهره . كل شئ كان بجواره – لسماء التى تشتت السحاب إلى اليسار ، نحو الشرق ، ومرآة النهر المرحة المحددة وكأنها فى إطار من خطوط الطمى الدهنية الملساء ، وشجرتا بتولا فى نصف دائرة على يساره بفروع انحنت إلى أسفل المياه ، وسياج حديدى متشابك من مشغولات مزخرفة خلف النهر ، وأصوات الناس الآتية من ناحية اليمين ، من الممرات بين الأشجار ... وكم كان جميلا الاستسلام للشمس ، وإغماض العينين ، والشعور بأن كل ذلك إلى جوارك .

كان قد غفا ، ولكنه سمع وقع خطوات من اليسار ، وسمع كيف استقرت هناك على نفس الأريكة الواسعة على الطريق والمتجهة بشكل عرضى نحو النهر .

– فيتكا(*) ! فيتكا ! – تناهى صوت سعيد وباكٍ لمرأة شابة – كيف اجتاز حقا ؟

– وما الذى هناك لايمكن اجتيازه ؟ – أجاب فيتكا فى توتر – يمكننى أن أجتاز أية ظلمات إليك .

(*) التصغير والتدليل من اسم فيكتور ، وأحيانا يكون أيضا فيتيا . المترجم .

– ولماذا الظلمات ؟

– إذن الأنوار . ولو حبستك التنانين هناك فى قصر قديم على طرف صخرة ، لاستطعت أيضا المرور إلى هناك بجوار الثعبان الجبلى بكل رؤوسه الخمسة والعشرين .

لم تستطع أن تتماسك ، فأجهشت بالبكاء بشدة :

– أحبك يا فيتكا .

– هه ، ما هذه المصيبة – أجاب هو باستخفاف متعمد – وأنا أيضا أحبك ، ولكن لا أحد يبكى بسبب ذلك .

– أنا ضعيفة . وما زلت حتى الآن أخاف .

– لا تخافى ، يا ليوسيا ، لقد مر كل شئ بسلام – أضاف الشاب شيئا ما أيضا ، ولكن الكسى بتروفيتش لم يلتقطه . لم يكن يود التنصت عليهما ، ولكنه علاوة على ذلك أيضا لم يود ، وهو الذى تدفأ وسُبى عقله، أن ينهض ويمر من أمامهما لأنه من الممكن أن يفزعهما .

– لماذا يتعاملون معك هكذا ؟ – سألت هى .

– أنت تعرفين : عقولنا ، أنا وأنت ، ليست مركبة بالمقلوب . تارة ما نفعله ليس صحيحا ، وتارة أخرى لانفعل ما ينبغى . أتعرفين يا ليوسيا...

صمتت ، ثم سألت فى توتر :

- أين تختبئ ؟

- لا - قال بسرعة - فليختبئوا هم ، أنا على أرضى .

- قل لى الحقيقة يا فيتكا ...

- أنا أقول لك الحقيقة . الحقيقة ، الحقيقة وليس إلا الحقيقة - كان يتحدث بصوت متقطع الأمر الذى طاب لها - تعافى بسرعة . سيأتى الصيف ، وسنذهب معا إلى جزيرة «فالام» ، وهناك نعقد قراننا . سيعطوننا صومعة ، لقد وعدونى فى مسكن الدير . وبجوارنا ، تحت النافذة الصغيرة ، سوف تطبطب المياه . ولن تكون هناك روح واحدة غريبة حولنا ، كل شئ لنا . وهناك سوف تتقوين ويشتد عودك .

- فيتيا ، هل تختبئ هناك فى مسكن الدير ، هه؟ قل لى .

وفى رجولة ، وبشكل صلب :

- أنا لا أختبئ فى أى مكان . أعطيك كلمة شرف . تعافى ، ولا تفكرى فى ذلك .

خيّم عليهما الصمت ، ولفترة طويلة . حدثت بقبقة : ألقى أحد ما بحجر فى المياه . خشخشت من وراء الأشجار أصوات المتنزهين فى الممرات . حلّق سرب عصافير وهو يصدر أصوات نخير ، والجو يزداد دفئا وهدوءا ، والشمس تبعث بدفئها فى لطف . راح الكسى بتروفيتش مرة ثانية فى النوم . وثانية بدءا يتحدثان من الأريكة المجاورة ، ولكنه لم

يميّز عما يدور الحديث . بكت الفتاة مرة أخرى ، ولكن مداعبة الشاب الرقيقة هدّأتها . كان كل شئ كما فى الحلم . وكما فى الحلم ، فى مكان ما بعيد – بعيد تعالى رنين أجراس . فى البداية متتابع ، وقور ، وبعد ذلك سريع تماما ، ومتوتر جدا يحشد الأصوات التى أخذت تردد وراءه : بم – بم – بم !

أرهف الكسى بتروفيتش السمع . الأصوات تبتعد تارة ، وتتلاقى تارة أخرى مع الرنين ، وكأن طيورا سابحة فى الفضاء ، كلما غاصت ، سعت ثانية إلى الأعالى لكى تهتف من هناك :

بم ، بم ، بم – أسرعوا إلى معابد الرب ،

بم ، بم ، بم – فهى ماتزال ، ماتزال تدعو .

صمت الرنين . وفى السكون طلبت الفتاة :

– شغّل .

– ستبكين مرة أخرى .

– سأحاول . شغّل .

أفاق الكسى بتروفيتش تماما . وعندما حوّل عينيه رأى على مسند الأريكة المتشابك رأسين مستندين إلى بعضهما البعض – أحدهما فى طاقية بيضاء مغزولة ، والآخر – عاريا وضخما بشعر أشقر وقَصّة رجالية . طن الرنين مرة ثانية . «أجل ، إنه شريط كاسيت ، أغنية» –

خمّن الكسى بتروفيتش . قرع الرنين ، ألقي الشاب والفتاة بذراعيهما على كتفى بعضهما البعض ، ضم كل منهما الآخر على نحو أكثر قربا ، وصاحبا معا المغنين بصوت جميل عميق يخرج من الصدر ويتساءل فى صرامة :

بم - بم - بم - أين أنتم أيها الأبناء الروس ؟

بم - بم - بم - لماذا نسيتم الأم ؟

بم - بم - بم - ألستم أنتم الذين على هذه الموسيقى ؟

بم - بم - بم - سرتم بزهو إلى الشهادة ؟ !

غصت الفتاة ، التى مالت تماما ، ببكاء مر . أغلق الشاب المسجل . نظر الكسى بتروفيتش دون أن يتوارى ، فى اتجاههم . أخذ الشاب يهدئ الفتاة ممررا يده على ظهرها . وراح يرنو في ذهول فى اتجاه ما أمامه مباشرة .

... طوال نصف عام بعد ذلك سوف يظل الكسى بتروفيتش يبحث عن هذه الأغنية سائلا جميع من حوله أين يمكن العثور عليها ، إلى أن يظهر ذات مرة أحد أتراب الكسى بتروفيتش ، وهو على كل حال ليس شابا ، يقاربه فى العمر ، ويحكى له عن رامان راهب دير بسكوفو - بتشير سكوى الذى نظم هذه الأغنية ، ومعها أغان أخرى كثيرة من أجل رعاية الروح الروسية الهائمة .

* * *

حوار مع الكاتب الروسى المعاصر:

فالنتين راسبوتين

- فالنتين جريجوريفيتش ، ظلت وسائل الاعلام لفترة طويلة تحتفل بعيد ميلادك الستين ، فهل جعلك ذلك تشعر بثقل السنوات ؟ وبحجم ما قدمته من إبداع ثقافى ، وبالكفاية الذاتية ؟ وهل تحقق كل ما كنت تود تحقيقه عموما ، أم لديك بعد ما لم يتم إنجازه لأسباب ما ؟

- أنا لا أعرف ذلك الكاتب الذى يمكنه أن يقول أنه قد قام بإنجاز كل ما كان يجب أن ينجزه . فصنعتنا التى ليست قاصرة على مهمة محددة تدفعنا دوما إلى الشك فى اكتمال النتائج الإبداعية .

هناك عشر سنوات - فترة السبعينات - فى حياتى الإبداعية كانت كثيفة الإنتاج للغاية ، حيث كتبتُ تقريبا الجزء الأكبر من إنتاجى الأدبى. أما العشر سنوات التالية لها - بل وحتى أكثر منها - فقد صُرِفَت ، كما يقولون ، على النشاط الاجتماعى . كان من الضرورى الدفاع عن بحيرة «بايكال» ، وبشكل عام عن تلوث البيئة ، والايكولوجيا . كان من الضرورى أيضا الدفاع عن رموز التاريخ والثقافة ، وبشكل عام عن الثقافة نفسها . وكلمة «ضرورى» هذه دفعتنى إلى تأجيل العمل الأدبى ، وإن كان كل ذلك بطبيعة الحال نسبيا . فقد كانت هناك بعض القصص ، ورواية «الحريق» ثم كتاب «مقالات عن سيبيريا» . والكتاب الأخير خرج بصعوبة بالغة إذا ما تحدثنا عن جمع مادته ، ولكنه على أية حال كُتب

بسعادة وإلهام . وأعتقد أن هذه المقالات يمكن أن تُعَد نوعا من أنواع الفنون . ولكن مع الأسف ، فكتاب «سيبيريا ... سيبيريا» لم يقرأه الا القليلين ، حيث صدر فى بداية سبتمبر ١٩٩١م ، فى فترة مخزية بتاريخنا ، وفى نسخ قليلة لم تصل إلى القراء. بعد ذلك ، وفى وقت متأخر وقع الكتاب فى أيدى التجار الذين قاموا بتوزيعه بأسعار عالية . ومع ذلك فقد انشغلتُ أكثر بالأدب الاجتماعى قبل أغسطس ١٩٩١م ، وبعده أيضا . حيث أقبل زمن الاضطرابات والأهوال الاجتماعية ، والكتاب الروس - كما هو معروف دائما - دخلوا هذه المعركة بأعداد ضئيلة ، وكنتُ أرى بالنسبة لنفسى على الأقل أن تجنب الدخول فيها أمر مستحيل .

- من المعروف (وكما يقال عادة) أنه من أجل ممارسة الإبداع الأدبى بشكل كامل يجب التفرغ التام له . وبالتالى يطرح الكثيرون سؤالا هاما : هل الأدب الإجتماعي ضرورى؟ وما الذى يدفع الكاتب إلى طرح منهج الرواية جانبا والتوجه مباشرة إلى الناس . ومن أمثال ذلك أعمال «لا أستطيع الصمت!» ، «جزر سخالين» ، «الوفاق» ؟ هل هذه خصوصية روسية ؟ فعادة ما يُنحى الكتاب الكبار رواياتهم ويتخلون عن الإبداع الأدبى ليتوجهوا مباشرة إلى الدعية أو المواعظ على اعتبار أن التأثير الفنى - الأدبى الخالص على المجتمع ليس كافيا بالنسبة لهم ، وبالتالى يحاولون تغيير مجرى الأحداث عن طريق الممارسات الحياتية نفسها .

- إن الأدب الروسى لم يكن أبدا فى غنى عن الأدب الاجتماعى ، وأعتقد أنه لا يمكن الاستغناء عنه إطلاقا . لقد بدأ الأدب الروسى بالأدب الاجتماعى تحديدا ، فمثلا «كلمة عن حرب ايجوريف» و«كلمة حول موت الأرض الروسية» ما هى إلا أدب اجتماعى . فكم كان تاريخنا صعبا ومأساويا ، وكم كانت حياتنا متوترة ومشحونة ، وكم كانت فضاءاتنا عظيمة وشاسعة الأمر الذى جعل الكلمة الهادئة غير مسموعة . ومن هنا فلا أحد من مبدعينا الكلاسيكيين تمكن من الاستغناء عن الأدب الاجتماعى . لقد ظل تشيخوف يشعر كما لو أنه متهم أمام المجتمع إلى أن كتب «جزر سخالين» وديستويفسكى فى «يوميات كاتب» أخرج نفسه من بين الأقواس كفنان ، وظهر كانسان روسى وكاتب عظيم بدون تحفظات . ولو لم تكن «مختارات من المراسلات مع الأصدقاء» لظل جوجول فى الأدب عبارة عن عجوز رافض وحسب ، وإنسان ذى روح غامضة حالكة – ولكن فجأة تتفتح هذه الروح بصفاء وسعادة فى صلاتها التى لم تكن أبدا فى الاستطراد الوجدانى الذاتى وحسب ، وإنما كانت فى جوهرها استطرادا اجتماعيا – فكم كان جوجول الوطنى عظيما حقا .

إن الفنان فى عمله الأدبى يضع أبطاله فى عالم مُخْتَلَق قريب من الواقع ولكنه ليس واقعيا . وهذا العالم يسمح للفنان أن يتحدث عن الانسان والحياة بشكل أكثر عمقا واتساعا ، وبصورة حسية ملموسة ،

وأكثر إمتاعا وتشويقا مما هى عليه فى الحقيقة . ولكن عادة ما تأتى فى إبداعات الكاتب لحظات ، كما فى حياة الناس مراحل ، تتطلب لا فنانا أو كاتبا ، وإنما شاعرا ومفكرا . وحاليا يمكن ذكر العديد من أسباب انصراف الناس عن القراءة ، قراءة الأدب بالذات . وعلى ضوء حديثنا يمكن الاشارة إلى سبب واحد هام ، وهو أن الحياة الآن أفظع بكثير ، وأقسى من تلك التى يقدمها الأدب ، والمسألة تتطلب وقتا من أجل التغلب على هذا التنافر .

نتذكر جميعا المؤتمر العام للكتاب ، الذى ثارت فيه ضجة عالية ونقاشات حادة بخصوص الكاتب والسياسة . فهل يمكن للكاتب الروسى أن يكون بمعزل عن السياسة ؟ أم أن عدم الاهتمام بالسياسة هو فى حد ذاته سياسة بالنسبة لشرائح معينة من الكتاب ، إننى أعرف جيدا أن هذا الجدل يدور فى روح كل كاتب ، ولكن الكاتب لايمكنه أن يجد أى شئ محترم فى السياسة ، وفى نفس الوقت فالابتعاد عن السياسة أمر قاتل للموهبة . فهل أكون مخطئا إذا قلت أنه لاداعى إلى تلك الاستجابات الفورية وردود الأفعال القوية على مختلف الأحداث السياسية ، وأن يتفرغ الكاتب فالنتين راسبوتين لأعمال أدبية جديدة يمكنها أن تكون أكثر تأثيرا على القارئ ؟

– يمكن أن تكون الفائدة أكثر للأدب ، ولىّ أيضا على المستوى الشخصى . فلا شئ يقضى على الانسان فى هذا العالم مثلما يقضى

عليه الصراع مع تلك القوى الخفية – الهائلة – التى ليس لها عنوانا أو ملامحا محددة ، ولكن تعال لنتصور : فى عامى ٩١ – ١٩٩٢م لو لم أكن أنا وبيلوف ورازوف وفلاسوف وكوجينوف وكونيايف وبونداريتكو . تصور : أنه لو كنا قد ارتأينا جميعا أنه من المريح لنا أن نمارس فقط عملية الإبداع الأدبى ، فهل يمكن أن نتصور أية أفكار كانت من الممكن أن تسيطر وتتسيد فى روسيا الآن ، وبأية لغة كانوا سيجبرون روسيا على الكلام ! فلنتذكر معا : «الوطنية – صفة الأوغاد» (تشيرنيتشينكو) . «روسيا قادرة على إنجاب العبيد فقط» (يورى أفاناسييف) . لنتذكر بأية سخرية وتهكم كانوا يتحدثون عن مقاتلى المقدمة فى الحرب الوطنية العظمى . إن كل ذلك كان قريبا من كونه أيديولوجيا الدولة / الحكومة ، وإلى ممارساتها . وكان من الطبيعى ألا يسمح العديد من الأدباء بذلك ، وأن يقفوا معا ضده ، ولا أحد كان بإمكانه أن يحل محلنا فى تلك المعركة . وإذا كانت السلطة غير الوطنية – بلا تحفظات – مضطرة اليوم للحديث عن الأفكار الوطنية ، فليس هذا بفضل جامعة هارفارد ، وإنما هذا فضل ومأثرة صحف مثل «اليوم» و«الغد» ، أنها مأثرتنا الجماعية ، ومأثرة هؤلاء الذين من أجل روسيا تركوا مكاتبهم ومختبراتهم .

ولكن ماذا عن الكتاب الذين قاتلوا فى المقدمة ولم يعودوا من الحرب ؟ كيف كان من الممكن الاستفادة منهم بشكل أكبر ؟ لا ، إن

روسيا تعرف أكثر كيف يمكننا أن ندبر أمورنا ونتصرف ، وتعرف أكثر مَنْ يمكنها دعوته ، وإلى أين تبعث به .

– معنى ذلك أن الأمر ليس مصادفة حين يلتف جميع المطالبين بالسلطة حول مسألة الوطنية ، بداية من يلتسين وتشيرنوميردين إلى ليبيد وزيوجانوف ولوجكوف حتى تشوبايس ..

– إنهم مضطرون لأن يكونوا وطنيين ، وخاصة تشوبايس ! ولاسيما إذا كنا نتصور أن ذلك من صميم قلبه ! ولكن أين كانت وطنيته عندما باع روسيا بعدة قطع من الفضة لهذا ولذاك مثل يهوذا !

عموما ففى الأدب الروسى يوجد شئ ملموس خلافا لأى أدب آخر، وهو أن الأدب عندنا كان دائما أوسع من الفن ، وكان تعبيرا عن مصائر الناس . هذا الأدب وُجِد ليس من أجل تسلية القارئ ، وإنما من أجل لضمه فى ، أو ضمه إلى الجسد الروحى الوطنى .

– لقد اتفقوا فى روسيا : فى العهود القيصرية ، وكذلك فى المرحلة السوفيتية على أن الأدب لم يكن أبدا قضية خاصة وفردية ، وإنما كان على الدوام يعيش فى براكين السياسة ، يتنبأ ، ينذر ، يلعن ، يفضح ، يمجد ، يُبَصِّر ، ... كما أن الكاتب لم يكن أبدا إنسانا فرديا منكفئا على ذاته ومعزولا . ولذا فقد كانوا يحترمونه ويخافونه . واضطهاد الأدب والتنكيل به فى مختلف العصور يعتبر فى نفس الوقت اعتراف قوى ودامغ به ، وإثبات لمكانته الاجتماعية الرفيعة . أما اليوم ،

وخاصة فى وسائل الاعلام – الديمقراطية – يُطلَق نداء غريب جدا : الأدب لا يجب بالضرورة أن يكون محط إهتمام الناس جميعا ، وأن الكتابة عملية ذاتية وخاصة تماما . وبالتالى فعدم اهتمام الناس بالطبع والنشر والقراءة شئ طبيعى ، حيث أن الكاتب فى النهاية يكتب بدافع ذاتي ومن أجل ذاته ، ويكفي أن يقرأ له عدة أشخاص وليس بالضرورة كل الناس .

– يمكن لوسائل الاعلام ، ولبعض الكتاب أن يتصوروا أنفسهم كما يشاؤون ، وأن ينادوا بأية مبادئ يريدونها . ومع ذلك فلا يمكن أن تكون لهم أية علاقة بالأدب الروسى ، فهم لديهم قلوب أخرى ، وكلمات أخرى ، وأصول أخرى ، ومواهبهم تتصف بالتعالى والازدراء والسلبية ، أو فى أحسن الأحوال تكون شخصياتهم الإبداعية وانطلاقاتهم الأنانية بعيدة تماما عن التربة الوطنية الروسية ولا تتلائم معا فى ذات الوقت .

ومن الطبيعى ، فمن أجل أن يُنَصِّبوا من أنفسهم ورثة للأدب الروسى ، كان من المطلوب أن يعلنوا عن موته . والآن على كل المستويات، وفى المجموعات والشرائح وبالنسبة لجميع المواهب الابداعية يتكرر شئ واحد فقط وبشكل شرير ومغرض : لقد مات الأدب الروسى (بمعنى أنه مات مثل التيار الروحي والأخلاقى الذى يمتلك جذورا ضاربة فى عمق مصير الانسان الروسى) ، لقد خبت المياه فى بحر الأدب ، وصار هذا البحر – فى وقتنا الحاضر – مجرد قناة رفيعة وجافة أيضا

يمكن أن نرى فيها كاتبا أو اثنين لا أكثر . ولنتذكر معا ، منذ عدة سنوات وقبل البدء من جديد فى إعادة بناء معبد المسيح المنقذ على أنقاض حمام السباحة الشهير ، تجمّع هناك عبدة الشيطان والشاذون جنسيا وراحوا يمارسون طقوسهم الوضيعة . وفعلوا ما فعلوه ، وجدفوا ما جدفوه ، من أجل تلويث هذا المكان المقدس ! ومع ذلك فقد ارتفع المعبد واعتلاه الصليب ، وذاب عبدة الشيطان والشاذون ... وهذا ما حاولوا عمله مع الأدب الروسى . أرادوا منعه ، ولكن دون جدوى . فطالما هناك روسيا ، فلسوف يكون هناك على الدوام أدب روسى .

- روسيا القديمة التى تتجسد فى وعيك تعتبر هى الملاك الحارس لروسيا اليوم ، تظهر دائما فى أزمنة الانحطاط مثلما كان فى الحرب الوطنية العظمى .. وهى التى تضفى الصبغة الروسية على جميع المشاريع الأممية – الكونية ، مشاريع التحولات الضخمة ، ومهما كانت الانقلابات التى جاءت من أعلى ، فروسيا القديمة – الحقيقية تسير فى طريقها الخاص .. تعطى صبغتها المميزة للجان الاقليمية ، واللجان البلدية .. تنمو وتتأصل فى الجيش ، وتتغلغل فى الصواريخ والفضاء ، تجرب الأسلحة ، وتشيد ميادين الرماية والمدن العلمية والمصانع . ومع كل ذلك فالأدب الروسى كان هو مسمار الأمان لروسيا ولسانها المعبر . فقد جاءت ثورة ١٩١٧م بالتروتسكيين الأمميين إلى السلطة ، بأفكارهم حول الثورة العالمية ، وبأن روسيا يجب أن تختفى ، ومرت عشرات

السنين ، وظهرت روسيا القومية / الوطنية مرة أخرى . يبدو لى أن ذلك سوف يحدث مرة ثانية الآن ، وسوف تقوم روسيا القديمة بتغيير مجرى الأحداث . فالسلطة العليا فى عام ١٩١٧م كان من السهل القضاء عليها ، وطار كل المشوهين من العاصمة سانت بطرسبورج وقتها إلى باريس ولندن وبراج وهاربن مديرين ظهورهم إلى «سمو» الامبراطور . ولكن روسيا القديمة جمعت امبراطورية روسية جديدة أكثر جمالا وعظمة . والآن ، مرة ثانية ، كان من السهل القضاء على السلطة السوفيتية ، ومرة ثانية تعلو أصوات الكآبة والانكسار والذعر ، مرة ثانية يبدو القطاع المهيب للدولة منزوع الارادة من أجل المقاومة ...

– فى عام ١٩١٧م ، وفى عام ١٩٩١م جاءت إلى السلطة مجموعات علوية غير راضية . ولكن على الأقل ففى عام ١٩١٧م كانت هناك سلطة لديها أفكار ، أما فى عام ١٩٩١م فلم تكن هناك سوى المطامع والنزوات. فى عهد بريجنيف تحول الحزب من حزب شيوعى إلى حزب وصولى نفعى – انتهازى – يحتوى على مجموعة الليبراليين (الطابور الخامس) التى لم تستطع الصمود فهربت تجر من خلفها ذيول العار . فمثلا يلتسين وياكوفليف وجيدار وبوربولس وتشوبايس كانوا جميعا مشوهين شيوعيا ، ولا مبدأيين كونهم مع جناح ما على حد سواء مع جناح آخر مما جعل منهم مجموعة واحدة متحدة . وهذا أمر لا يثير الدهشة إطلاقا . لكن الخارج من نطاق الفهم هو كيف تقع مثل هذه

الدولة الضخمة تحت سيطرتهم . ومن البديهى يمكن تصور التفسيرات ، مع أنها قد طرحت مسبقا ، ولكن هذه التفسيرات نفسها لا تساوى أى شئ بالمقارنة مع ما حدث . فلم يحدث أبدا أن كانت روسيا القومية ، وفي تاريخها كله، بهذا القدر من غياب الارادة وخاصة مثلما حدث فى نهاية الثمانينات وبداية التسعينات .

- .ولكن كيف ترى أنت مشاركتك فى السلطة ، ومشاركتك فى مجلس الرئاسة فى فترة حكم جورباتشوف ؟ هل كان ذلك مفيداً بالنسبة لك ، وبالنسبة للمجتمع ؟ من الممكن تخمين أحاسيسك حينما وافقت على الاشتراك فى مجلس الرئاسة : لابد أن يكون هناك إنسان فعّال ومؤثر فى الاتجاه القومى . فهل نجحت هذه المحاولة ؟

- لم تنته مشاركتى فى السلطة بأى شئ . كانت دون جدوى على الإطلاق . إننى بكل خجل أتذكر حواراتى مع جورباتشوف (ذهبنا مرتين إلى جورباتشوف ، أنا وفاسيلى بيلوف ، وتحدثت أنا معه ثلاث مرات على انفراد) حول التحول الثقافى والأخلاقى الذى سبق التحول الحكومى . بدا لى أننى قابلت تفهما كاملا ولكن لم يتغير أى شئ . وأنا ، بالمناسبة ، غير مؤمن إطلاقا بأن جورباتشوف منذ البداية ، مع وصوله إلى المكان الأول فى الدولة ، قد فكر فى عملية تدمير الدولة . ولكنه كان أقل مما فكر فيه بخصوص «البيريسترويكا» (بالطبع ليس هو الذى فكر فيها . وعموما ففى أغسطس ١٩٩١م أظهر أيضا أنه جبان) ، وأخذ

يسلم موقعا بعد آخر . بالاضافة إلى أنه لم يكن واثقا فى قدراته ، وكان أنانيا ولديه إحساس عال بالذات ، وقد أدارت رأسه فكرة المجد لأشهر إنسان فى العالم ، ومن أجل ذلك ضحى مرة أخرى بمصالح روسيا عندما ضحى بالاتحاد السوفيتى ، وبحلفائه الذين حذروه من الأخطار ، ولدرجة أنه ضحى حتى النهاية – بل وبصق على الذين كانوا فى داخل جهازه وخارجه أيضا .

لقد ذكرتنى بالتأثير القومى ، بمعنى تأثير النخبة القومية فى تلك الفترة . وهذا هو المضحك فى الأمر حيث أنها لم تكن موجودة بشكل متكاتف فى الجهاز الأعلى للسلطة . ولنتذكر مؤتمر الكتاب فى ١٩٨٩م ، والذى تم فيه اختيار ما أطلق عليهم نواب الشعب عن طريق القائمة . لنتذكر كيف جاهد الليبراليون بأظافرهم وأسنانهم لشق طريقهم إلى هذه القائمة ، وبالتالى إزاحتنا منها . ولقد حاولوا دفعى بالقوة إلى هذه القائمة فى حين لم يوافق فيكتور أستافيف مباشرة ، أما فاسيلى بيلوف فراح يفكر (وانضم إلى قائمة أخرى) . وبالنسبة إلى يفتوشينكو وتشيرنيتشينكو فلم يتمكنا من المرور إلى هذه القائمة ، ولكنهما تمكنا من التحرك على مستوى الأقاليم ، ومن البديهى فقد حالفهما الحظ . إننى أود بذلك القول أن القوى اللاقومية كانت تعد لانقلاب ، وأحسوا وقتها بالامكانيات المتوافرة لديهم . لقد كنا نناقش ونتحدث عن العدالة ، أما هم فى ذلك الوقت أسسوا مجموعة دولية تخريبية وديمقراطية ، تماما ، من أجل انهيار الاتحاد السوفيتى .

– ولكن الانشقاق الأدبى الذى قسّمكم إلى قطبين متباعدين ، وإلى أدبين لا يمكن لهما أن يتلاقيا أبدا . هل بالفعل كان حتميا ؟ وعلى الرغم من أنها كانت عملية منظمة ، بالطبع لم تكونوا أنتم الذين نظموها ، وإنما يفتوشينكو وأتباعه ، فهل من الممكن الاستمرار على هذا الحال ؟ وهل الأكثر راحة أن يعيش الانسان فى وسطه فقط ويلتقى مع من يماثلونه فقط فى الفكر ، أم من الضرورى أن تقوموا بعملية تقارب جديدة ، وإدماج جديد لاتحادى الكتاب ؟

– الانشقاق كان حتميا ، مثله مثل أى شئ أثناء أية ثورة . وقد جاء فى اتجاه معاد للقومية بأحداث ١٩٨٩م – ١٩٩١م . فاذا كان الجزء الأول من الأدب كونى ، استخف بكل ما هو قومى ، وخاصة بكل ما هو روسى ، فان الجزء الثانى مثّل مضمون وروح هذا القومى . فأية أخوة يمكن أن تكون فى ذلك ؟! ففى التلفزيون جعلوا كل من تشيرنيتشينكو ويفتوشينكو يتناوبون فى دوريات من أجل القضاء التام على أى تيار يمكن أن يشير ولو من بعيد إلى الاتحاد السوفيتى الملعون، وروسيا الملعونة . وبعدها راحوا ينكلون بنا جميعا . لقد كان الانشقاق فى الأدب حتميا ولا مفر منه . وأعتقد أن ذلك مجديا للغاية . فكل حزب أدبى أخذ طريقه ، والآن لا أحد يخفى مبادئه وأهدافه ، ولا أحد أيضا يخلط بيننا . إن كلاً منا يعبد إلها مختلفا ، ونحن الآن قد بدأنا الافتراق كل فى طريقة ، ربما يكون ذلك مبكرا ولكنه سيتحقق . وعموما فبيننا

وبينهم روسيا المُدَمّرة والمكللة بالعار . مع المسعورين لن يتحقق شئ ، ولكن لدينا علاقات جيدة مع الكتاب ذوى وجهات النظر المعتدلة ، ومع المواهب غير الشريرة ، وأعتقد أنهم لن ينحازوا إلى أية مجموعة مهما كانت، ومهما كان الأمر .

– ولكن ماذا يحدث الآن مع الأدب نفسه ؟ لماذا لا يتعاطى أحد الأدب الآن تقريبا ؟ أين ذهب ملايين القراء ؟ لماذا ضاعت الرغبة لدى الكثيرين فى الكتابة ؟ هل شعر الكتاب باستنفاد الأفكار وتلاشيها ، وأنه لا يوجد ما يستحق الكتابة عنه ، أم أنهم لايعرفون ماذا سيحدث غدا ، ولا يعرفون إلى أين تسير روسيا ، وماذا – بعد انتهاء حضارة كاملة ، حضارة الاتحاد السوفيتي – سيحدث بعد ذلك – الآن لا أحد يعرف هل ما هو موجود حكم ملكى أو جمهورية برلمانية ، أم ديكتاتورية قومية أم استعمارية . لا يمكن الآن التكهن بأى شئ ولو حتى لمدة ستة أشهر إلى الأمام . الكتاب لا يعرفون إلى أين يمكنهم إرسال أبطالهم ، ولا يعرفون فى الوقت نفسه لغة جديدة ...

– من أجل أن يعمل الكاتب لابد أن يشعر بالحاجة إلى كتبه . والأدب – عملية مزدوجة تجرى فى علاقة تبادلية بين الكاتب والقارئ . الكاتب قد أفرغ يديه لأن القارئ قد رفع يديه عن الكتاب . خلال عدة سنوات انغمست روسيا تماما فى مستنقع من العفن والعار والخوف ، والألم المتواصل . ولن نتحدث عن الصراع المستمر من أجل الحصول

على لقمة العيش ، ولكن الجو المؤلم للدولة ، الذى يعذب الانسان ، لا يتيح الفرصة للقراءة . هل تلاحظ كيف تغير أسلوب الكتاب ، ولغة الخطاب ؟ لقد أصبحت لغة قلقة متوترة ، مضطربة وغير انسيابية ، وكل شئ ليس فى مكانه ، بما فى ذلك الروح والقلب معا . إضافة إلى أن القارئ أصبح يخاف الكتاب ، وليس صحيحا أنهم نقلونا كليا إلى منظومة قيم وأذواق أخرى . فالوقاحة وعبادة الشيطان والقسوة والرياء، والكذب عن روسيا ، والأصنام الجديدة فى رداء قطاع الطرق والمجرمين والمومسات والأشكال الأخرى من الشذوذ لا يتقبلها القارى الروسى . والسوق يطرح عليه كميات هائلة من هذا الأدب بالتحديد ، وتدعمها منظومة الإعلانات وما يقف وراءها من مؤسسات وجهات ضخمة مشبوهة . فماذا تريدون من القارئ ؟ إنه يفعل الشئ الصحيح برفضه هذا الأدب ، ويحجبه الثقة عنه كله باعتباره ثمرة فاسدة فى سلة واحدة مع غيره . وسوف يبدأ القراءة بمجرد أن تعودالحياة إلى شكل أكثر هدوءا وطمأنينة ، وبمجرد أن يفصح الأدب عن عظمته ورسالته ودوره فى مصائر الناس ، وعن حبه وعذاباته ومعاناته تجاه الانسان . سوف يعود القارئ ، ولكنه سيكون قارئا آخر ، ذلك القارئ الذى يحتاج إلى أشياء أخرى من الأدب : أفكار أخرى ، ونوعية أخرى للتعامل مع الحياة . فبعد عام ١٩١٧م كان على الأدب أن يؤكد نفسه ، فظهر شولوخوف ويسنن وبعدهما بولجاكوف وبلاتونوف ، هؤلاء الذين كان على القارئ أن

يتعامل معهم جميعا . وبالتالى فمن المفروض علينا أن نكتب إذا كنا نريدهم أن يقرأونا . فروسيا لايمكن انتزاعها عن الكتاب .

– تقولون أنه بعد الثورة ظهر شولوخوف ومايكوفسكى ويسنن وبلاتونوف وبولجاكوف هؤلاء الذين كان يقبل عليهم القارئ . فهل توجد اليوم أسماء جديدة يمكنها أن تجتذب القارئ ؟ وبعد أكثر من عشر سنوات من البيرسترويكا ، هل يوجد فى روسيا جيل جديد من الأدباء الروس ؟ أم أنه مجرد إحساس بأن هناك أدب روسى جديد ؟

– أنا لا أعرف هذه الأسماء . وهذا لايعنى أنها غير موجودة . أعتقد أن الجيل القادم سوف يأتى بعد يورى كازلوف وألكسندر سيجين . هذا الجيل سيكون جيل فنانين يصبون فى مطلع الثالث والعشرين ، ويدركون تلك اللوحات والحقائق التى لم يتوافر لنا إدراكها .

– عموما سوف نعود بعد ذلك إلى قضية القارئ الروسى ، ولكن كيف ترون الآن مكانة ألكسندر سولجينيتسين ؟ وهل هو ممتع وهام بالنسبة لك ؟

– إن أية قيمة كبيرة تثير من حولها آراء مختلفة ، وتصنع علاقات صعبة . وألكسندر ايسايفيتش قيمة ضخمة جدا ، وهذا ما لم أشك فيه أبدا – منذ ظهور «يوم واحد فى حياة ايفان دينيسوفيتش» وحتى آخر لحظة . ومن الرائع أنه عاد إلى روسيا ، ومرة ثانية يعيش فيها . فمن أجل أن نسمع هذه الأرض الحبيبة ، حقيقتها وألمها ، يجب أن ننشأ

ونعيش فيها ، ويقلوبنا . سولجينيتسين اليوم ليس هو سولجينيتسين إذا ما قارناه بذلك الرجل العائد إلى الأرض الروسية بعد عشرين عاما من الفراق . أن تقويماته ومقولاته ، وآخر مقالاته تتحدث كلها عن ذلك . واتضح أن الذى أطاح بالشيوعية هو اليوم فى السلطة ، وهما معا يطيحان بروسيا . أن سولجينيتسين لم يعترف بذلك مثل فلاديمير مكسيموف ، إنها علاقة تبعية مباشرة وأعتقد أنه يفهم جيدا . ولكن من ناحية أخرى يجب الاتفاق مع عمله المكتوب بعنوان «كيف يمكننا بناء روسيا» ، فالزمن أثبت أنه كان على حق .

– لقد دعا إلى الاتحاد الفيدرالى بين روسيا وبلاروسيا وأوكرانيا وشمال القوقاز . ولكن ليس لكم اليوم الا أن تحلموا فقط ، واتضح فعلا أنه كان على حق فى تكهناته .

– ومع ذلك فهناك «النقاط» والمواقف التى أواصل فيها خلافى مع سولجينيتسين . أنا لا أستطيع أن أفهم ، أو أقبل تعظيمه لكتاب (تيار «الدون الهادئ») ، فبفضله هو تم توزيعه فى جميع أنحاء العالم ، ومن ثم عادت «الأغنية» القديمة بخصوص إثارة الشكوك حول شولوخوف . فى روسيا أدب عظيم ، ومهما كان عدد الكتاب العظماء فيها ، فلا يجب أن يشعر أحد منهم بالضيق أو المزاحمة ، فلكل يوجد مكان .

أنا لا أتفق معه بخصوص الشيشان . إننا باعطاء الشيشان نعطى شمال القوقاز كله . وبالاستغناء عن شمال القوقاز ، فاننا لا نصب الماء

على البارود ، وإنما نصب البنزين على النار ، فى جميع الانفصاليين من الفولجا حتى سيبيريا ، وبذلك نضع مستقبل روسيا موضع الشك .

– هل تقصدون مخاطرالحرب الأهلية ؟ أم أن أسباب هذه المخاطر فى طريقها إلى الزوال ؟

– يساورنى إحساس بأننا قد تجاوزنا مخاطر الحرب الأهلية . كان من الممكن توقع ذلك فى عام ١٩٩٣ م ، وبعده أيضا . أما الآن فذلك بعيد عن التصور . إن الجميع مضربون عن الطعام (وأقصد هؤلاء الذين يمكنهم المطالبة بحقوقهم) ، والجميع – أيضا – يتم إسكاتهم بهبات ومنح لا تسد رمقهم . وفى الحقيقة فالأمر غير مفهوم : هل هذه حكمة ، أم غريزة الدفاع عن النفس ، أم هو فقدان القدرة على الحياة . القضية تتلخص فى أن الغرب لو أمرنا باقامة حرب أهلية فسوف ننفذها ، بالطبع ليس من أسفل ، وإنما من أعلى ، وبالتالى سيحصل يلتسين على جائزة نوبل العالمية .

إن القوى الشعبية ، والقادة ، رهن نداء اللحظة التاريخية الحتمية ، ولكن لنعتبر الآن أنها لم تحن بعد . يمكن للذاكرة أن تستعيد من التاريخ ٢٥٠ عاما من الاحتلال التتارى لروسيا . ولكن ماذا حدث ؟ لقد هبت روسيا ، هب الروس من تحت الأرض ، وجدوا السلاح والعدة والعتاد ، واستعادوا روسيا . إن روسيا «التحت أرضية» غير نائمة ، إنها تحافظ على نفسها بالصبر والاحتمال ، وهى دائما كانت تنقذ نفسها عن طريق المعاناة .

- فالنتين جريجوريفيتش ، أنت من سيبيريا ، وهذه المنطقة الغنية تمتلك تاريخا وثقافة وتقاليد لا يستهان بها ، وفى نفس الوقت يقطنها سكان ينتمون لقوميات عديدة . وها نحن نسمع مؤخرا عن تناقضات عديدة - يمكن أن نطلق عليها أفكارا انفصالية - مع الجزء الأوروبى من روسيا . فما هى الأخطار المحدقة بها على وجه التحديد فى إطار ما يحدث لروسيا كلها ؟ وكيف ترون مستقبل سيبيريا مع روسيا ؟

- للأسف ، فهذه المشكلة موجودة فعلا . أن سيبيريا كانت على الدوام مجرد مستعمرة «مصدر للمواد الخام» - فى البداية للامبراطورية الروسية ، وبعد ذلك للاتحاد السوفيتى . وعلى الرغم من كون هذا الاقليم يمثل جزءا كبيرا من روسيا ، إلا أن سكانه قليلون جدا . ولذلك ، كما يبدو لى ، فجميع محاولات غزو واستيعاب سيبيريا لم تأت بالنتائج المطلوبة . ولأن سيبيريا متعددة القوميات ، فالتوجهات الانفصالية الحالية تجد دعما وتشجيعا . وهذا يتم تحريكه بالطبع من أعلى : حيث أنه ما يزال حتى الآن يجرى التعامل معها كمصدر للمواد الخام كما كان فى السابق . ومع ذلك فأى شخص سليم التفكير يمكنه أن يدرك أن روسيا لا يمكنها الحياة بدون سيبيريا كما أن سيبيريا لا يمكنها أن تعيش بدون روسيا .

إن موسكو ، كمركز ، تحاول بكل الطرق تقوية ودعم التوجهات الانفصالية فى سيبيريا . ورغم أن سيبيريا كانت على الدوام مستعمرة

عطاء لروسيا القيصرية وللاتحاد السوفيتى ، إلا أنه لم يجرؤ أحد أبدا على التعامل معها بهذا القدر من الغدر والشراسة والاحتقار . إنهم يبيعونها على المكشوف ، ويتاجرون بكل شئ فيها . لقد كانت سيبيريا قلعة ضخمة لكل شئ بما فيها الصناعات الثقيلة . فعلى سبيل المثال كان أضخم أربعة مصانع للألومنيوم من خمسة فى العالم تنتمى إلى روسيا – سيبيريا ، وطبعا لا ينتمى أى منها حاليا إلى روسيا . الآن يباع كل شئ من المنبع : الذهب ، النفط ، اليورانيوم ، الزئبق ، الغابات . إن حكام المقاطعات فى حالة هلع ، فكل ما ينتمى إلى المقاطعة ينتمى على نحو ما إلى مواطنى اسرائيل . ومنذ فترة تقدمت أمريكا ، مرتين ، باقتراح لشراء سيبيريا بالكامل على غرار ما حدث مع «ألاسكا» . من هنا تأتى التوجهات الانفصالية بمحاولة بيع سيبيريا . ألا ترى أنه من الأفضل للسلطة الفيدرالية أن تتخلص بسرعة من تشوبايس وأتباعه من أن تبيع سيبيريا ؟!

– تجرى حاليا محاولات كثرة حول فكرة قومية من أجل روسيا يمكنها أن توحد جميع الشعوب الناطقة بالروسية . فهل يمكننا الاطلاع على موقفكم تجاه هذه الأفكار ، وأيها تناصرون ؟

– لو تأملنا تاريخ روسيا والدول الأخرى ، سنجد أن الأفكار الوطنية كانت دائما موجودة وقابلة للتفعيل ، بما فيها أفكار المصالحة الوطنية . والسياسيون الذين كانوا يرفضون حتى وقت قريب هذه الأفكار ، مضطرون

اليوم إلى البحث عن أفكار قومية عامة موحدة . إذن فما هى تلك الفكرة القومية ؟ إنها قبل كل شئ فكرة استقلالية روسيا ، وليست على الإطلاق وسيلة استعمارية لترسيخ دورها فى العالم كما يبدو للبعض . وعندما نتحدث عن الفكرة القومية من أجل روسيا ، فنحن نقصد بداهة كل الشعوب الروسية فى مجموعها . ولا يجب أن يغيب عنا أنه فى روسيا حوالى ٨٠٪ من السكان من أصل روسى . وهم ، كما يوضح التاريخ ، قادرون على الحياة بجوار الشعوب الأخرى . والطموحات الاستعمارية لدى روسيا لم تكن موجودة أبدا ، وعلى الأرجح فقد كان منوطا بها دور المبشر والمنور الذى ساعد العديد من الشعوب الروسية على الحياة .

– ولكن ألن تؤدى بشكل عام أية فكرة روسية عامة – قومية أو تاريخية أو ثقافية / اثنية – إلى عملية مساواة سطحية / شكلية توتاليتارية حيث تصبح الأولوية لشئ ما رئيسى وكل ما عدا ذلك فى الدرجة الثانية ؟

– عندما نتحدث عن تلك الفكرة القومية ، فهذا فقط بمقتضى الحالة المَرضية الحالية للمجتمع . وهذا كما يقال عصا بطرفين : فهى حتى مستوى معين دواء للمريض ، وضرر للانسان الصحيح . وعندما نجتاز الاصلاحات ونقف على أقدامنا ، فسوف يتعامل الناس مع المشكلة القومية بشكل مختلف تماما وليس على نحو حاد كما يحدث الآن . وعموما فهذه مرحلة لابد من المرور بها . إن الأفكار الوطنية

تسمح بإعادة إدراكنا لأنفسنا فى ضوء تاريخنا وثقافتنا وأدبنا ، وهذا يعنى فى الاقتصاد أيضا - عماد حياة الدولة .

- نعود مرة أخرى إلى الثقافة والأدب بشكل عام ، وإلى القارئ الروسى في عصر الروس الجدد بشكل خاص . إن قضية الكاتب والقارئ لا تشغل تفكير الروس فقط ، وإنما تشغل تفكير الشعوب كلها ، ولكن على اعتبار أن الشعب الروسى منذ عشر سنوات فقط كان يعد أحد أكبر الشعوب المحبة للقراءة ، إن لم يكن أكبرها على الاطلاق وهذا من مشاهداتنا نحن الأجانب فى روسيا ، فماذا حدث بالضبط ، وماذا يحدث ؟

- ربما يكون من الضرورى تحديد أننا لا نقصد ذلك القارئ الذى يعيش دون صدق أو إخلاص : فليس لديه أى شئ ، ولا توجد أية علاقة مع أى شئ سوى الافرازات الفيزيولوجية ، وبالتالى فلا جدوى من انتظاره . إننا نتحدث عن القارئ الذى يمتلك ذوقا صحيحا وقواعد صحيحة ، عن ذلك الانسان الذى يلجأ كسابق عهده إلى الأدب كوجبة للعقل والقلب على حد سواء .

أجل ، لقد أصبحوا يقرأون أقل بكثير وبشكل مفاجئ بعد الازدياد المُطّرِد فى نهاية الثمانينات ، أن هذا «المفاجئ» ، وهذه السرعة الخارقة لإهمال الكتاب ، وفقدان الرغبة فى التعامل معه ، تفصح عن شذوذ هذه الظاهرة ، وعن رعب ما فظيع من مواجهة الكتاب . إن الرعب

من مواجهة الكتاب بالذات ، هو ما يجب أن نعترف بأنه أحد الأسباب الهامة - كما قلت سابقا - فى الهبوط الحاد لعدد القراء . أما السبب الرئيسى هنا ، فهو بالطبع فقر القارئ الروسى ، وعدم قدرته على شراء كتاب أو الاشتراك فى مجلة . والسبب الثانى هو انكسار الروح من جراء انفجار «المواد السامة» تحت غطاء القيم الجديدة ، وتلك الحالة التى لايمكن التفكير فى ظلها إلا فى إيقاظ النفس فقط . والسبب الثالث هو : ماذا يقدم سوق الكتاب ؟ فليس لدى كل قارئ الحنكة والخبرة بمعرفة الأسماء ، وحتى إذا كانت لديه تلك الحنكة والدراية ، فهو - مثلا - يأخذ الكتاب الجديد لكاتبه المحبب فيكتور أستافيف ، وهناك يجد السباب والشتائم المقذعة ، ومشاعر التأفف والنفور تجاه الانسان الذى أوقعه مصيره فى الشيوعية . وربما يأخذ عملا لمؤلف مشهور مثل سوفوروف ليجد فيه مكاشفة عن أن هتلر الذى لم يبدأ الهجوم على بلادنا عام ١٩٤١م ، بل نحن الذين تعدينا أولا على ألمانيا . وها هو النقد «الديمقراطى» الذى أخذ يطنطن فى أذنى فيكتور يروفيف حول «جميلاته الروسيات» ، وفى النهاية نرى أنه تلزمنا رجولة غير عادية ، ليس فقط لقراءة مثل هذه المؤلفات وإنما أيضا لحفظها فى منازلنا . لدى القارئ انطباع لا إرادى بأن جميع الأعمال الأدبية الحالية ، أو تقريبا كلها ، على هذا النحو ، وبالتالى فمن الأفضل عدم التعرف أو الاطلاع .

إن القارئ يذهب إلى المكتبة ، أية مكتبة ، فيقولون له : هناك إقبال كبير على القراءة كما فى السابق ، ليس طبعا مثلما كان قبل عشر

سنوات ، ولكن على أية حال لم يكف الناس عن القراءة تماما . ونرى الهزليات الأمريكية تقدم للأطفال فى الوقت الذى أصبح فيه جورج سوروس يقوم بإصدار وتوزيع أعظم مجلاتنا مثل «الراية» و«العالم الجديد» و«نيفا» و«النجم» . وبالطبع فالقارئ يصنع خيرا عندما يبتعد عن الآثام ويتجه إلى الكلاسيكيات .

– ولكن ما رأيكم فيما يقال عن الحملة المكثفة المتواصلة ، وبعيدة المدى لإبادة الثقافة الروسية ؟ هل من الممكن إيقافها ؟ وإلى أى مستوى وصلت نتائجها ؟

– إذا كانت السلطة قد ألقت بالجيش فى مهب الريح ، وبالدفاع ، والعلوم ، وتجرى إصلاحات التعليم على أنماط غربية غير مناسبة ، وغير متوافقة مع متطلباتنا الوطنية ، فعلى أى شئ يمكن أن تستند ثقافتنا الوطنية ؟! لم يعد لدينا إلا ثقافة واحدة : ثقافة التهليل والتطبيل ومداهنة السلطة . إن كل شئ يموت ويفنى بالتدريج ، يذهب إلى العدم . كل شئ يعانى ، وكل المؤسسات تنار واحدة تلو الأخرى : المسارح الاقليمية ، المتاحف ، المكتبات ، النوادى . إنهم يحاولون إبعاد مكتبة نيكراسوف العريقة من مكانها فى موسكو ، بل والتخلص منها نهائيا من أجل إقامة نادي ليلى . لقد هلكت نصف ثقافتنا تقريبا ، والباقى فى حالة يرثى لها . وما يشغل وزير ثقافتنا حاليا هو كيف يعيد إلى ألمانيا ما غنمناه فى الحرب العالمية الثانية طامعا بذلك فى الحصول على جائزة «أفضل

ألمانى» أو على الأقل «ألمانى العام» . لكن هل يمكن تعويض الخسائر ؟! بالطبع مستحيل . ومع ذلك فروسيا غنية بثقافتها ، ولو وفقنا فى إعادتها إلى حالتها الطبيعية ، فلسوف تبدأ مرة أخرى فى الغناء ، والتحليق . وسوف تساهم بثروتها ليس فى المزادات ، وإنما من أجل الثراء الروحى للوطن .

وكم أود هنا أن أذكّر بأن أطول ذاكرة لا ترحم ليست فقط لدى التاريخ (على الرغم من أنه يمكن إصلاح التاريخ أو إعادة كتابته) ، وإنما لدى الثقافة . ولسوف يكون لديها ما تتركه لأحفادنا عن زمننا الملعون . إن بطرس الأول الذى يتشبه به رئيسنا ويحاول أن يساوى نفسه به ، قد اشتهر فى التاريخ على أنه مصلح روسيا ، وأنه فتح نافذة على أوروبا ، ولكنه مع ذلك يُعرف فى الذاكرة الشعبية بـ«عدو المسيح» ، أو «المسيح الدجال» الذى حطم دون رحمة العقيدة والعادات والتقاليد . وسوف تمر ثلاثمائة سنة وسيبقى ويظل المسيح الدجال فى الذاكرة الشعبية .

– فالنتين جريجوريفيتش ، كيف ترى نفسك : كاتبا سوفيتيا أم روسيا ؟ هذا على اعتبار أنك كتبت معظم إنتاجك فى المرحلة السوفيتية ؟ وكيف ترون مفهوم «الأدب السوفيتى»؟ وكيف تقومونه ؟ ففى رأيى الشخصى أن كلا من شولوخوف وليونوف – على سبيل المثال – كاتبان ليس فقط روسيان ، وانما سوفيتيان أيضا ...

– إننى أرى نفسى دائما ، وفي آية حال من الأحوال ، كاتبا روسيا . فكلمة سوفيتى لها طابعان : أيديولجى وتاريخى . لقد كان هناك عصر بطرس ، وعصر نيكولاى ، والناس الذين عاشوا فيهما كانوا بطبيعة الحال ممثلين لهما ، لم يرد فى ذهن أى أحد أن يرفض عصره . وبالضبط هكذا نحن الذين عشنا وأبدعنا فى العصر السوفيتى أطلقوا علينا كتاب المرحلة السوفيتية . ولكن الكاتب الروسى أيديولوجيا ، وكقاعدة ، اتخذ موقف العودة إلى روسيا القومية التاريخية فى حالة إذا ما كان غير مرتبط بالحزب . وأعتقد أن الأدب فى الفترة السوفيتية وبدون أية مبالغة استطاع أن يحتل أفضل المواقع فى العالم . ولأنها كانت أفضل ، فقد كان عليها ، من أجل تجاوز الصراع الأيديولوجى ؛ أن تظهر قدرتها الفنية الكلية إلى جانب قوة النهوض الروحية المنبعثة من الحياة القومية . والأدب مثل أية قوة حياتية يتطلب المقاومة من أجل أن يكون واضحا وجليا وقويا . وهذا لايعنى بالضرورة مواجهة الرقابة (على الرغم من أننى كنت على الدوام ومازلت أقف إلى جانب الرقابة الأخلاقية أو البوليس الأخلاقى – وليسميها أى أحد كما يشاء) ، ولكن يمكن أن يكون مواجهة الميكانيزمات الخفية المضادة مثل الرأى العام . وعلى سبيل المثال ، الميكانيزم الحالى الذى يرى أن اللص والمومس هما أكثر الناس احتراما ، والذى يمنح الخائن شهادة تقدير . وبالمناسبة ، فالرقابة السوفيتية صنعت من ألكسندر سولجينيتسين قيمة عالمية ،

أما الأفكار «الديمقراطية» الحالية فقد جعلته أهم وصنعت منه قيمة قومية .

– بمناسبة الرقابة ، فى زمن ما تشكى الجميع – يساريون ويمينيون – من هيمنة وطغيان الرقابة . وفى الواقع ، فأية رقابة تسئ دوما وبصورة فظيعة لأى شكل من أشكال الإبداع . ويقال أنه لا توجد حاليا رقابة . فهل أعاقتاك الرقابة فى السابق ؟ وهل منحتك الحرية الحالية شيئا ما ملموسا ؟ هل هناك ما لم تتمكن من قوله فى أعمالك بسبب الرقابة ، فى أى من المرحلتين ؟ ومن ناحية أخرى هل ترى معى أن الرقابة قد عودت المبدع على الطاعة والنظام بارغامه على التعبير بشكل محدد عن كل ما هو خاضع للرقابة ؟ فهل تمكنت من قول كل ما تريده بوسيلة ما خفية ؟

– بالطبع كل ذلك ممكن . ففى روسيا القيصرية كانت هناك رقابة ، ومع ذلك فالأدب كله تقريبا كان فى اتجاه «النقدية الواقعية» و«الديمقراطية الثورية» . وهو الأدب الذى قام بدور كبير فى تغذية العقول بالأشياء الثورية . أما الرقابة السوفيتية ، فلم تقف ضد فيكتور أستافيف عندما كتب أعظم كتبه . أنها لم تكن لتسمح برواية مثل «الملعونون والمقتولون» . وفى الحقيقة فقد كُتب عن الحرب فى هذا الكتاب بشكل غير معقول ، شرير ، وفقط كان الشر والغيظ ، وأيضا اليأس ، كما أنه وضع بعض المفاهيم فى دائرة الشك ، مثل مبدأ «الوطنية» ،

و«الحـرب الوطنيـة العظمى» . ومن المعـروف أن ليف تولسـتوى لم يكن يعترف بمبدأ «الوطنية» ، ولكن روايته «الحرب والسلام» ، وخصوصا موقعة بارادين ، تفصح عن عظمة ومجد الجندى الروسى ، ولا يوجد فى أدبنا الروسى رواية «وطنية» أعظم من هذه الرواية . وقد تم وضع رواية «أرخبيل الجولاج» فى إطار هذا الأدب الوطنى لما فيها من آلام حول ما حدث فى روسيا ، وليس أبدا لما فيها من شماته وتشف..

لقد كنا نشكو جميعا من الرقابة فى الفترة السوفيتية ، ورغم ذلك فقد كان هناك أدب ، وأى أدب ! الرقابة كانت تقف عاجزة أمام الفنية العالية والرفيعة . لقد عرفنا جيدا أنه من أجل أن تقول مقطعا ما يمكنه أن يفلت من تحت سلطة الرقابة ، كان يجب أن تقوله بشكل جيد ، وليس بشكل عارى أو عادى . عليك أن تُشفِّره من أجل الرقابة ، وتترك الباقى على القارئ . وأعتقد أن هذا هو أحد شروط الإبداع الأدبى – هو أن تقول بشكل جيد . وعموما فالقارئ لم يكن يقرأ القشور ، وإنما كان يتعمق ويتوغل ويهتم جدا ، ويدرك ما هو موجود بين السطور ، وأحيانا كان يستقرئ النص بنفسه .

– كنتُ أود ، قبل أن ننهى حديثنا ، أن أسألكم عن النقد الأدبى فى روسيا ، هل هو موجود فى الوقت الحالى ؟

– يوجد نقد أدبى . نعم . فهناك فالنتين كورباتوف وفلاديمير بونדارينكو وليف أنينسكى ، وآخرون . فهم يقومون بكتابة يوميات نقدية

وملخصات ، يعرضون الكتب ، يقدمون الكتاب الجدد .

ولكن ليس هناك تلك الحركة النقدية التى من شأنها التأثير على الذوق العام ، والتى يمكنها أن تكون صدى للرأى الشعبى . ليس هناك ذلك النقد القادر على التقدم أمام الأدب والتأثير على مساره . إن ذلك النقد غير موجود حاليا ، ولا يمكنه أن يوجد فى ظل فوضى الاتجاهات والمدارس الموجودة الآن .

★ ★ ★

الفهـــرس

الصفحة

١ – مـقـدمـة : بقلم المتـرجم 3

٢ – العـــجـــوز 23

٣ – نتـــاشـــا 33

٤ – مـــامـــا ذهبت إلى مكان مـــا 49

٥ – رودولفـــيـــو 55

٦ – لقـــاء 85

٧ – لا أســـــتطيع 111

٨ – فـى المســتـشــفـى 129

٩ – حــوار مع فـالنتين راســبـوتين 199

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت: لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر ألن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت: عاطف أحمد/إبراهيم فتحي/محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا الرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى

(تحت الطبع)

تاريخ النقد الأدبى الحديث (٣)
المختار من نقد ت . س . إليوت
منصور الحلاج
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى
الجماعات المتخيلة
ثلاث دراسات فى الشعر الأندلسى
شعرية التأليف
نقد استجابة القارئ
مختارات غوتفريد بن
بساطة العولمة
النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
التحليل النفسى للأدب
تاريخ السينما العالمية
صلاح الدين والمماليك فى مصر
مسرح ميجيل دى أونامونو
مختارات من المسرح الإسبانى
صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر
الابتلاء بالتغرب
طول الليل
نون والقلم
فن التراجم والسير الذاتية
الحب الأول
أوبرا ماهوجونى
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
حروب المياه
ثلاث زنبقات ووردة
الأدب الأندلسى
الأدب المقارن
راية التمرد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٠٤٢ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 037 - 8)

В.Г.Распутин

Наташа ...Старуха

И

Другие рассказы

■ إن راسبوتين أحد أكثر الكُتّاب الروس الذين تعاملوا مع نماذج الشخصيات العجوزة، وبالذات السيدات، المرأة بشكل عام عنده تشكل حجر الزاوية، تمثل حالة الفعل، استمراريته، ديمومته، قوته النشطة المحفزة، ولكن المرأة العجوز هي الحكمة / الذاكرة ببعديها الروحي والفزيولوجي، فلديه عدد هائل من العجوزات اللائي يحملن، ويحفظن في آنٍ واحد العادات والتقاليد الشعبية، والصور الشخصية، والطبائع الروحية والنفسية، وهن في نفس الوقت يرتبطن بموضوع الحياة / الموت / الذاكرة الحية؛ حيث نكتشف أن الموت لدى راسبوتين ليس موضوع رحيل وفناء بقدر ما هو موضوع تفكير وتأمل فيما تبقى.